

دكتور
عبّاس علي السُّوسُوة

فِقْهُمُ اللَّغَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ

دار غريب
للطباعة والنشر
بمكة المكرمة

فقه اللغة والثقافة العربية

فقه اللغة والثقافة العربية

دكتور
عباس علي السوسوة

أستاذ اللسانيات بجامعة تعز

بحاققة فهرسة

معرضة إنشاء النشر اعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ادارة الشؤون الفنية

السوسوسة، عباس علي

فقه اللغة والثقافة العربية / عباس علي السوسوسة القاهرة: دار غريب للطباعة

والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨

١٦٠ ص ٨٠ سم

تدريج ٣ - ١٦ - ٤٦٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - فقه اللغة العربية

- الخوار

٤٦٠

الكتاب ، فقه اللغة والثقافة العربية.

المؤلف : عباس علي السوسوسة

رقم الإيداع : ٢٢٩٢٧ / ٢٠٠٨

تاريخ النشر : ٢٠٠٩

الترقيم الدولي : ٩78 - 977 - 463 - 016 - 3

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للمؤلف ولا يسمح بإعادة

نشر هذا العمل كاملاً أو أي قسم من أقسامه ، بأي شكل من

أشكال النشر إلا بإذن كتابي من المؤلف

الناشر ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع بوبار لاطوغلي (القاهرة)

ت ٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٢٧٩٤٤٢٢٤

التوزيع : دار غريب ٣ شارع كامل صدفى الفجالة - القاهرة

ت ٢٥٩١٧٩٥٩ - ٢٥٩٠٢١٠٧

ادارة التسويق : ١٢ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

ت ٢٢١٣٨١٤٢ - ٢٢١٣٨١٤٣

والعرض الدائم

www.darghareeb.com

فهرست المحتويات

الموضوع	الصفحة
١ مقدمة	٧
٢ تشريح أسطورة: نخوة المعتصم	١١
٣ عن النسق المضمّر في تاريخ الأدب العربي	٢٩
٤ اللسانيون التراجمة يقولون ما لا يفعلون	٥٥
٥ المستشرقون وخبز الشعير المذموم	٦٩
٦ الصحاح، هل اقتصر على الصحاح	٨٥
٧ سطوة آراء السيوطي والبغدادي على آراء المحدثين	١٠١
٨ فصحاء من اليمن حتى القرن الثالث عشر الهجري	١٢١
٩ رهاب العربية الفصحى	١٣٥



مقدمة

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين
الطاهرين، وصحابته المتتبعين. أما بعد:

فهذا الكتاب يضم ثمانية أبحاث، نشر منها خمسة من قبل... يجمع بينها رباط
واحد، هو مساءلة بعض المسلمات السائدة في ثقافتنا العربية، وهذه المسلمات ننزع
عنها هذه الصفة ونحاكمها بميزان العقل، وميزان العصر الذي أنتجت فيه. ولم يكن
هذا بالأمر السهل؛ لأن ثقافتنا المعاصرة طابعها الاجترار وعبادة الأسماء الكبيرة من
السلف والخلف مع آرائهم ولو خالفت المعقول والمنقول.

سميت الكتاب «فقه اللغة والثقافة العربية»؛ لأن بعضها خاص بالدرس
اللغوي عند القدماء والمتأخرين من القدماء والمحدثين، وبعضها الآخر متعلق
بأوهام عند مؤرخي أدبنا القديم، أو عند مترجمينا الذين يعيب بعضهم بعضاً
في حين أنه يقع في أكثر مما رمى به غيره. وقدمت الأسطورة المعتصمية على
غيرها؛ لأن فيها شرحاً أظنه وافيّاً عن الأسطورة، ثم تلتها بقية الأبحاث.
وأبداً يذكر الأبحاث المنشورة:

١- الصحاح هل اقتصر على الصحاح. مجلة بحوث تعز، العدد الأول
١٩٩٨م، ص ٦٠-٧٥.

٢- المستشرقون وخبز الشعير المذموم. مجلة (جذور) - النادي الأدبي
الثقافي، جدة، العدد ١٢، مارس ٢٠٠٣م، ص ٢٩-٥٢.

وقد حذفُت منه الملاحظات والتصويبات المتعلقة بالعديدين السابقين من
المجلة، وأضفتُ تذييلاً طويلاً عن جهود المستشرقين الألمان في تحقيق التراث
العربي. مأخوذاً من كتاب أستاذنا محمد عوني عبد الرؤوف.

٣- عن النسق المضمّر في تاريخ الأدب العربي. نشر في مجلة (علامات) في ~~العدد~~ العدد ٥١. مارس ٢٠٠٤م. ص ٩٥-١١٢.

وقد حذفتُ منه المقدمة التي تتناول مسيرة أعوام من هذه المجلة الصادرة عن النادي الأدبي في جدة. وأضفتُ إليه تذييلين للزميلين العالمين: سامي سليمان أحمد، ومحمد عبد المجيد الطويل.

٤- اللسانيون الترجمة يقولون ما لا يفعلون. نشر في (علامات في النقد) العدد ٥٣. سبتمبر ٢٠٠٤م. ص ٨١-٩٦.

حذفتُ منه التصويبات التحوية والصياغية، والتعليقات القصار على بعض أبحاث (ملتنى النص) الخاص بالترجمة.

٥- تشريح أسطورة: نخوة المعتصم: نشر في (جذور) العدد ٢٣، مارس ٢٠٠٦م. ص ١٥٥-١٧٢.

ولم أ حذف منه شيئاً. وأصلحتُ بعض هفوات الطباعة. وزدتُ عليه ذيلين. عنوانين لتلميذنا إبراهيم محمد طلحة.
أما غير المنشور فثلاثة أبحاث:

- سطوة آراء السيوطي والبغدادي على المحدثين في قضية الاحتجاج بالشعر القديم.

- فصحاء من اليمن حتى القرن الثالث عشر الهجري.

- رهاب العربية الفصحى.

ولم ألقِ بالكتاب قائمة مصادر ومراجع: اكتفاء بما جاء في كل بحث على حدة، فالإحالات فيها مستوفاة.

ولا أ ختم هذه العجالة قبل أن أذكر ديوني لأهل الفضل عليّ في هذه الأبحاث. سائلاً المولى عز وجل أن يجزيهم خير الجزاء.

أولهم: شيعي الجليل الأستاذ الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف. أستاذ علوم اللغة في كلية الآلسن - جامعة عين شمس. وعميد الكلية السابق (ولا أقول الأسبق). فقد غذّاني بكثير من الكتب والأبحاث، وأشار عليّ في محاوراتي معه مشورة نافعة .

وثانيهم: الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين، رئيس تحرير مجلتي (جذور) و(علامات في النقد)، فقد احتفى بكتاباتي في المجلتين، واقترح عليّ الكتابة في بعض الموضوعات، وأحسن بي الظن فطلب مني تصحيح (تاريخ كيمبرج للآدب العربي). وقد استأذنته في إعادة ما نشرته مجلنا النادي فأذن.

وثالثهم: الصديق الناقد الناقم/ محمد ناجي أحمد، الذي يجمعني به الهم المعرفي الدائم، وقلة الصبر على طعام ثقافي واحد، والتساؤل الدائم الذي لا يهدأ.

ورابعهم: طلابي من كلية التربية - جامعة تعز. دفعة يوليو ١٩٩٤م التي كانت دفعة ذهبية، ثم دفعة يوليو ١٩٩٥م التي كانت برونزية (الفضية لا توجد).

وخامسهم: مجموعة من طلابي النابهين في كليتي التربية والآداب، كانت محاوراتهم الدائمة معي من حوافز الكتابة في هذه الموضوعات. أذكر منهم:

تامر عبد الودود محمد .

دعاء أحمد راوح .

عبد الرقيب محمد عبد الله .

فتحى أحمد صالح الشرماني .

قدريه سهل إبراهيم عمر .

حياة علي إبراهيم حسن .

والله أسأل أن يتفح القراء بما في هذا الكتاب، كما أسأله المغفرة من زلات
اللسان وفلتات القلم . آمين .

وكتب/ أبو الزهراء، وشيماء، وعلياء، وفاطمة، ومحمود، والخليل و/ أيوب

عباس علي السويوة

أستاذ اللسانيات

جامعة تعز - الجمهورية اليمنية



تشرح أسطورة نخوة المعتصم

تشرح أسطورة: نخوة المعتصم

(١)

الأساطير موجودة عند كل الشعوب، وغاية الأمر أن أنواعها قد تختلف بحسب حاجات الشعوب النفسية. وعلماء الفولكلور (= المأثورات الشعبية) يميزون تمييزاً حاسماً بين نوعين لكل منهما مصطلحه.

فهناك (Myth) وهي قصة تفسر ظاهرة كونية معينة أو مجموعة ظواهر؛ كشوء الكون أو الأرض، وتعاقب الليل والنهار، أو فصول العام، أو نزول الأمطار، وحدوث الزلازل والبراكين وما شابه ذلك. وهذه تعود في نشأتها إلى زمن موغل في القدم، عندما كان الإنسان يخلع عليها من نفسه بما فيها من آمال ومخاوف ورغبات الشيء الكثير، ولم تكن طبيعة عصره تسمح له بتفسير علمي سليم لها، كذلك لم يكن لديه كتاب سماوي يوضح له ذلك. وهذا النوع منه: أسطورة البطل المؤلَّه كقصة جلجامش السومرية البابلية ومنه الأسطورة الطقوسية كقصة إيزيس وأوزيريس وحورس عند قدماء المصريين. ومنه الأسطورة الرمزية كأكثر أساطير اليونان: نرجس، وكوبيد، وأوديب.

وهناك (Legend) وهي قصة تقوم - في الغالب - حول شخصية لها وجود تاريخي متعين، لكنها ترفعه إلى مستوى الإنسان الخارق. وتخلق له بيئة وأشخاصاً متعددين: أعداء وأصدقاء، ويمضي في مغامراته حتى يتمها. ومثل ذلك ما سموه عندنا (السيرة الشعبية)، كسيرة عتربن شداد، والزير سالم، والهلالية، والملك سيف بن ذي يزن. وغيرها.

وإذا كان النوع الأول قد كَفَّت الشعوب المختلفة عن إنتاج الحديد منه. وتفتت موضوعاته وشخصه في الحكايات الخرافية والشعبية؛ فإن النوع الثاني

ما زال موجوداً عند من يعتقه، بل هي حقيقة قارّة لا يعتورها الشك؛ بل إن المشكك فيها كالمشكك في حقيقة دينية أو قومية .

ونحن في هذا البحث سنقوم بتشريح أسطورة شائعة بين العرب المعاصرين، هي أسطورة (نخوة المعتصم). وبالطبع فالتشريح ليس عملاً محيياً لدى نفوس الكثيرين، لكنه السبيل الأسلم - فيما نرى - لمعرفة الحقيقة.

(٢)

منذ وعيت - إلى حد ما - الواقع السياسي العربي. وأنا أسمع خطباء المساجد، وخطباء المناسبات القومية يركزون على (نخوة المعتصم) التي انعدمت عند قادة المسلمين وعند قادة العرب المعاصرين، في حين أن هذه (النخوة) هي السبيل إلى تحرير الأرض المحتلة سواء في فلسطين أو في غيرها من بلاد المسلمين. بل ينبغي أن تكون موجودة، بحيث لو صرخ مسلم مظلوم في أي ركن من المعمورة: وامعتصماه! كان هناك من ينجده من فوره قائلاً: لبيك .

ولا يقف الأمر عند الخطباء، فقد شاهدنا وسمعنا عشرات التمثيليات الإذاعية والتليفزيونية تصور الأمر على أنه سمة شخصية فردية متعلقة بالمعتصم. ورغم الاختلافات الهامشية بينها فإنها تتفق على الآتي:

١ - امرأة مسلمة في مدينة عمورية من بلاد الروم يلطمها جندي رومي.

٢ - المرأة تستغيث صارخة: وامعتصماه!

٣ - الجندي الرومي يسخر منها ومن المعتصم الذي يبعد عنهما مسافة شهر وأكثر .

٤ - يصل الخبر إلى الخليفة المعتصم وهو في مجلس لهو وشراب، فتأخذه (النخوة). فيترك الكأس التي في يده دون أن يتم شربها ويصرخ: لبيك يا أخناه!

٥- يقوم المعتصم فوراً ويجر وراءه جيشاً كبيراً لا يتوقف عن السير حتى يصل إلى عمورية، فيحاصرها ويفتحها عنوة. ويصل إلى المرأة قائلاً: لييك!

٦- يعود المعتصم إلى مقر ملكه ويكمل شرب الكأس!!

بعضها يعدّل المشهد السادس؛ فنرى المعتصم يمسك بالكأس ثم يعاهد الله على أن ذلك آخر عهده بالشراب المحرّم، ويلقي بها في الأرض.

سلاحظ القارئ الكريم أن المشهد الذي يبدأ فيه (البطل) عملاً ما: شرب كأس، إنعام طبخة، كتابة سطر أخير في صفحة، إكمال جزّ العشب في حديقة- ثم يفجؤه طارئٌ يعجله عن إكمال ما بدأ ثم يعود بعد إنجازه، لهو متوفر في الأفلام الإيطالية التي سميت (ويسترن إسباجيتي) ومن أبطالها: جوليانوجيما، أنتوني ستيفن، تيرنس هل، بود سبنسر، توماس ميليان، جورج هلتنون، جورودون سكوت، ستيف ريفز، كما هو موجود في أفلام العميل (٢٠٠٧) جيمس بوند بأبطالها: شين كونري، جورج مور، تيموثي دالتون، ولا تخلو منه أفلام الحركة التي يمثلها: ميل جيسون، بروس ويليس، جان كلود فان دام، هاريسون فورد، أرنولد شوارز نيجر. ويحق لنا نحن العرب أن ندعي حقوق الطبع والملكية الفكرية، كما هو دأبنا. لكن أحداً لم يفعل.

(٣)

النخوة التي تصورها الأسطورة تعني: الحماية، وسرعة النجدة، والمبادرة إلى فعل الخير طوعاً دون أن يكون للفاعل مصلحة شخصية. وهذا المعنى للنخوة غير موجود في المعاجم العربية القديمة^(١)، رغم وجوده في الكتابات العربية القديمة، ثم عند العامة بعد ذلك.

(١) وكم للمعاجم القديمة من مفاجآت! تصور أن (اكتشف) بمعنى (توصل إلى شيء جديد) لا يوجد فيها. كان نقول: اكتشف نيوتن قانون الجاذبية. فليس في القاموس المحيط (مادة كشف) غير: اكتشف الكش النعمة نزا عليها. وكشفت المرأة لزوجها: بالفت في التكشف. اهـ.

ولذلك لاحظ خطأ المصححين اللغويين الذين لا يرون بصحة لفظ إلا إذا ورد في المعاجم

ونطلب من قارئنا الكريم الصبر ونحن نتجول في المعاجم القديمة وعباراتها
ومتاهاتها.

- جاء في الجمهرة لابن دريد^(١) : نُخِيَ الرجل فهو منخو والاسم النخوة.
- وفي الأساس للزمخشري (مادة نخا)❖ : نخى فلان فهو منخو: مزهو.
- وانتخى من كذا: استكف منه (...).

- والمادة غير موجودة في المصباح المتبر للفيومي .

- وفي لسان العرب^(٢) ، أكبر المعاجم القديمة، أفرغ فيه ابن منظور مواد
خمس من كتب اللغة نجد ما يلي:

النخوة: العظمة والكبر والفخر. نخا ينخو وانتخى ونُخِيَ وهو أكثر .
وأشد الليث: وما رأينا معشراً فيتخوا .

الأصمعي: زُهِى فلان فهو مزهو ولا يقال: زها . ويقال: نُخِيَ فلانٌ
وانتخى ولا يقال: نخا. ويقال: انتخى فلانٌ علينا، أي: افتخر وتعظم، والله
أعلم . اهـ.

قال عباس: هذا كل ما في هذه المادة.

- في القاموس: نخا ينخو نخوة: افتخر وتعظم. نُخِيَ كعُني، وانتخى.
- وانتخى فلاناً: مدحه. وأنخى زادت نخوته .

❖❖

(١) ابن دريد: جمهرة اللغة، بمطبعة محمد يوسف السورني وفريش كرنكو، حيدر آباد الدكن: جمعية دار
المعارف الهندية ١٣٥٤هـ جزء ٩ ص ٢٤٤

(٢) ابن منظور: لسان العرب - نج هذا الله عني الكبير وآخرين، القاهرة: دار المعارف ١٩٨١م، مادة (نخا)
ص ٤٣٦٩ . والكتب التي اضرب نظرية مادتها هي كتابه: ١- صحاح الجوهري ٢- حواشي ابن بري
على الصحاح ٣- التحكم لابن سيمة ٤- التهذيب للأزهري ٥- النهاية في غريب الحديث والأثر.
لاس الأثير الحزري

❖ وبذكر جمهرة لغة لابن دريد نرجع أن اسمه قد تكرر في مواد المعجم ٥٦٧ مرة* ولم يذكر المتجدد لكرام
لحسن ربه تردد اسمه أكثر من ثلاثمائة مرة

- وليس في (تاج العروس) من زيادة إلا استدراك استكف متولاً من الأساس !
- وأما في (المعجم الوسيط) - وهو معجم حديث صادر من المجمع
القاهري - فنجد معاني: الفخر والعظمة والتكبر والاستكاف مرتبة. ثم:
«النخوة: الحماسة والمروءة» ونحمد الله على أن وقته إلى هذه الزيادة المفيدة.

لتتابع الآن في كتب التاريخ التي أرخت للمعتصم، لنرى أكان فتح
المعتصم لعمورية - ولغيرها - مجرد نخوة شخصية استجابة لاستغاثة امرأة
مسلمة باسمه، أم إن الأمر غير هذا. وسنقسم النص المنقول إلى فقرات حاذفين
منه ما لا يتعلق بالقضية التي نحن بصددتها.

(١-٤)

نبدأ بأقرب المؤرخين زمناً من عصر المعتصم (٢١٨-٢٢٧)، وهو أحمد بن
يعقوب بن جعفر (ت ح ٢٨٤هـ)^(١) فقيه:

(٤٣٦/٢) ودخلت الروم زِيْطَرَة سنة ٢٢٣ فقتلوا وأسروا كل من فيها
وأخرجوهم.

فلما انتهى الخبر إلى المعتصم قام من مجلسه نافرأ حتى جلس على
الأرض، وندب الناس للخروج (...).

وخرج يوم الخميس لستَ خَلَوْنَ من جمادى الأولى سنة ٢٢٣هـ. ودخل
أرض الروم فقصده أرض عمورية - وكانت من أعظم مدائنهم وأكثرها عدة
ورجالاً، فحاصرها حصاراً شديداً (...).

(٤٣٧/٢) وفتحت عمورية يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر
رمضان سنة ٢٢٣. فقتل وسبي جميع من فيها. وأخذ ياطس خال ملك الروم،
وأخرب وأحرق كل ما اجتاز به من بلادهم. وانصرف . اهـ.

(١) اليقوي تاريخ اليقوي، بيروت ط الأعلوي ١٩٩٣م .

(تعليق): رأى القارئ أن الروم هاجموا زبطرة - لا عمورية - وهي من بلاد الروم وتحت حكم المعتصم، وأن هؤلاء ارتكبوا فيها المذابح. وحتى يصل الخبر إلى مقر الخلافة - حسب طبيعة العصر - لابد أن يأخذ أكثر من أسبوعين إذا بالغنا وأن الخروج للقتال استلزم وقتاً للتمبئة. وأن بين خروج المعتصم وفتح عمورية أكثر من أربعة أشهر. وألاً ذكر لمرأة استغاثت، ولا لكأس أهرقت. فالصبي أعظم من لطم امرأة.

(٢-٤)

ونتقل إلى أبي جعفر محمد بن جرير الطبري^(١) (ت ٣١١هـ)، الذي لديه تفصيلات أكثر.

أوقع تيوفيل بن ميخائيل صاحب الروم بأهل زبطرة فأسرهم وخرب بلدهم.

ومضى من فوره إلى مَلْطَبَةِ فَأغار على أهلها وعلى أهل حصون من حصون المسلمين إلى غير ذلك، وسبى من المسلمين فيما قيل أكثر من ألف امرأة، ومثل بن صار في يده من المسلمين، وسمل أعينهم، وقطع آذانهم وأنافهم.

فلما دخل ملك الروم زبطرة وقتل الرجال الذين فيها وسبى الذراري والنساء التي فيها، وأحرقها؛ بلغ النفير - فيما ذكر - إلى سامرا وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة وأهل الجزيرة (هكذا مكررة) إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح.

واستعظم المعتصم ذلك. فذكر أنه لما انتهى إليه الخبر بذلك صاح في قصره النثير، ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالاً وسكة حديد وحقية، فلم يستقم له أن يخرج إلا بعد التعبته. فجلس - فيما ذكر - في دار العامة (...).

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك، نج محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ج ٩ / ٥٥-٧٠، وقارن بطبعة الأعلمي، بيروت ج ٧: ٢٦٢-٢٧٥.

ثم عسكر بغربي دجلة، وذلك يوم الاثنين لليلتين خلنا من جمادى الأولى .
 ووجه عفيف بن عنبسة وعمراً الفرغاني ومحمد كوته وجماعة من القواد
 إلى زبطرة إعانة لأهلها فوجدوا ملك الروم وقد انصرف إلى بلاده (...).
 ودبر (الأفشين من قواد المعتصم) النزول على أنقرة، فإذا فتحها الله عليه
 صار إلى عمورية، إذ لم يكن شيء مما يقصد له من بلاد الروم أعظم من هاتين
 المدينتين.

وبعد ذلك إطالة في وصف العمليات الحربية إلى أن تم النصر .
 (تعليق ثانٍ): إضافة إلى ما قلناه في التعليق الأول، نجد أن المواطنين في
 المناطق القريبة من الأحداث كانوا أسرع في الاستعداد لرد العدوان، كما نجد أن
 هناك حملة تأديبية استكشافية عليها ثلاثة قواد وصلوا وقد أخلى العدو الموقع،
 وأن الحملة سلكت طرقاً مختلفة خُطت لها مسبقاً، بحيث تأتي الضربات في
 أكثر من منطقة رومية كأنقرة مثلاً.

(٣-٤)

ثم تنتقل إلى علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ)^(١) :
 خرج توفيل ملك الروم في عساكره ومعه ملوك برجان والبرغر (هكذا)
 والصقالبة وغيرهم ممن جاورهم من ملوك الأمم حتى نزل على مدينة زبطرة
 (...) وأغار على بلاد ملطية، فضح الناس في الأمصار واستفأوا في المساجد
 والديار.

فدخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم فأنشده قائماً قصيدة طويلة يذكر
 فيها ما نزل عن وصفنا، ويحثه على الانتصار (...).

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة: المكتبة التجارية
 ١٩٥٨، ج ١/٤٠-٤١.

(...) وسار المعتصم من الثغور الشامية (...)

ولقي ملك الروم الأفشين فخاربه، فهزمه الأفشين، وقتل أكثر بطارقه وأصحابه.

وفتح المعتصم حصوناً كثيرة، ونزل على مدينة عمورية ففتحها الله على يديه، وخرج إليه لاوي البطريق منها وسلمها إليه. وأسر البطريق الكبير منها وهو باطرس. وقتل منها ثلاثين ألفاً. وأقام المعتصم عليها أربعة أيام يهدم ويحرق.

(تعليق ثالث): رأينا أن مؤرخي القرنين: الثالث والرابع لم يذكروا قصة المرأة ولا الكأس. لكننا لا نعدم أن نجد مؤرخاً بينه وبين الحدث أكثر من أربعمئة سنة يذكر هذه القصة. ذلك هو عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)^(١)، رغم أنه ينقل بالحرف أحداث السنين الواقعة قبل عام ٣٠٠هـ من تاريخ الطبري.

فني (ح٦ / ٤٩٧) ذكر خروج إلى الروم إلى زبطرة.

وفي (ح٦ / ٤٨٠-٤٨٨) ذكر فتح عمورية. ينقل عن الطبري بالحرف ماعداً أول الخبر «لما خرج ملك الروم وفعل في بلاد الإسلام ما فعل، بلغ الخبر إلى المعتصم. فلما بلغه ذلك استعظمه وكبر لديه. وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه! فأجابها وهو جالس في سريره: لبيك لبيك! ونهض من ساعته وصاح في قصره: النفير النفير. ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالاً وسكة حديد وحقبة فيها زاده، فلم يمكنه المسير إلا بعد التعبه (...) إلخ.

لا تعليق!

^(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. بيروت. دار صادر. ج٦

بعد ذلك نجد المؤرخين لعصر المعتصم - على اختلاف طرائقهم - لا ينقلون هذه الزيادة الموجودة عند ابن الأثير، ومنهم الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، وابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ)^(١). ولم يشذ عنهم غير ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) الذي صدع رءوسنا في (المقدمة) بانتقاده من سبقه من مؤرخي المسلمين، ويحدثه عن أهمية قوانين العمران البشري، وجعلها معياراً لقياس صحة الوقائع فهو هنا - كما في كل تاريخه أو معظمه - ناقل، دون تمحيص، عبارة ابن الأثير. ولم يتساءل ما قيمة صرخة واحدة أمام آلاف القتلى وآلاف الأسرى من المسلمين؟ وتهديد صريح للدولة؟ نقل: «بلغ توغل زبطرة (...) وبلغ الخبر إلى المعتصم فاستعظمه وبلغه أن هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم: وامعتصماه! فأجاب وهو على سريره: لبيك! (...) إلخ»^(٢).

ولا تعليق!

(٥)

العناصر الحقيقية التي بنيت عليها الأسطورة (Legend) موجودة: المعتصم وهجوم الروم على زبطرة وملطية وغيرها، واستغاثة الناس جميعاً ورد العدوان بانتقام أشد، أو بلغة العصر بنصر استراتيجي. كل هذا حقيقي. وقد رأى

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، نع شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرفوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦، ج ١٠ / ٢٩٠-٣٠٦. وابن كثير: البداية والنهاية، نع أحمد عبد الوهاب فسيح، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٧، ج ١٠ / ٣١٣-٣١٠. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ج ٢ / ٢٣٨. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نع عبد القادر الأرنؤوط، دمشق: دار ابن كثير، ١٩٨٨، ج ٣ / ١٠٤-١٠٥.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. القاهرة: دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، ١٩٩٩، ص ٥٥٧.

القارئ الكريم أن سيناريو (النخوة) لا يمكن أن يصح، ولم يذكره المؤرخون القدماء. فكيف بُنيت خيوط هذه الأسطورة شيئاً فشيئاً؟

نقول: مدح أبو تمام الطائي (ت ٢٣١هـ) المعتصم بمناسبة فتح عمورية، بالقصيدة التي يعرفها الصغير والكبير «السيف أصدق أنباء من الكتب» وفيها يقول:

لَبِيتَ صَوْتًا زَبْطِيًّا هَرَقَتْ لَهُ

كَأْسُ الْكَرَى وَرُضَابُ الْخُرْدِ الْعَرَبِ^(١)

ولا يعني أبو تمام إلا أن المعتصم لبى استغاثة الناس، تاركاً النوم اللذيذ واللهو مع النساء. غير أن الشارح - الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ) لا يكفيه ذلك، بل شارك في (سيناريو) الأسطورة بقوله: «زبطري: منسوب إلى زبطرة، وهي بلد فتحه الروم، فبلغ المعتصم - فيما قيل - أن امرأة قالت في ذلك اليوم وهي مسبية: وامعتصماه! فنقل إليه ذلك الحديث وفي يده قدح يريد أن يشرب ما فيه، فوضعه وأمر بأن يُحفظ. فلما رجع من فتح عمورية شرب (!!)»^(٢)

والخطيب في شروحه جميعاً عاللة على من سبقه، ويقصر عنهم^(٣). وهو في شرحه لدبوان الطائي معتمد على شرح المعري. وشرح الخارزنجي وغيرهما. وهذه الحكاية لم ترد عند سابقيه. وقد أشار المحقق محمد عبده عزام فقال: «في (ظ) قال الخارزنجي: إنما أراد بذلك قول امرأة من زبطرة كتبت إلى المعتصم حين دخلها الروم:

يا بن الخلائف من ذؤابة هاشم

ذهبت زبطرة منك إن لم تأتها»^(٤)

(١) دبوان أبي تمام يشرح الخطيب التبريزي، نبع محمد عبده عزام، القاهرة: دار المعارف ج ١ / ٦١ .

(٢) دبوان أبي تمام يشرح الخطيب التبريزي ج ١ / ٦١-٦٢ .

(٣) الفرزوني: شرح حماسة أبي تمام، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١، مقدمة المحققين عبد السلام هارون وأحمد أمين.

(٤) دبوان أبي تمام، ج ١ - ٦٢ حاشية المحقق .

ونؤجل التعليق على الاستغاثات النسائية، ونعلق على حكاية الكأس التي كان أمير المؤمنين المعتصم يشربها وأمر أن تحفظ (!)، وقد لاحظ القارئ أن زمن فتح عمورية كان بعد حفظ الكأس بأكثر من أربعة أشهر، وزد عليها شهرين للعودة ولإنجاز أمور أخرى من بينها التخلص من مؤامرة يدبرها ابن أخيه المأمون فتصير الجملة أكثر من ستة أشهر. فما وسائل حفظ المشروبات في القرن الثالث الهجري؟ لم يُجب عن هذا السؤال. ثم ألا يحتمل أن يفسد ما في القدح؟ وهو لاشك قد فسد، إضافة إلى احتمال أن تسقط فيه وزعة أو ذبابة أو حشرة؟ فكيف يسوغ للخليفة أن يشربه؟ ألم أقل لكم إن علينا أن نطالب منتج أفلام جيمس بوند بحقوق الملكية؛ لأننا تفوقنا عليه؛ إذ لا يستغرق زمن هذا المشهد عندهم ساعات أو يوماً.

(٦)

وتتناثر في معجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) أسماء المواضع المتعلقة بالأسطورة، وعناصر الأسطورة، جريباً على عادة لياقوت في إيراد العجائب والفرائب^(١).

يقول عن (زبطرة) ١٣١/٣: مدينة بين ملطية وسميساط والحدث، في طرف بلاد الروم (...) وقال أبو تمام يمدح المعتصم: لبيت صوتاً زبطرياً (...).

ويقول عن (عمورية) ١٥٨/٤: بلد في بلاد الروم غزاها المعتصم حين سمع صراخ العلوية (...)، وقد ذكرها أبو تمام فقال: يا يوم وقعة عمورية انصرفت (...) وهي التي فتحها المعتصم في سنة ٢٢٣هـ وفتح أنقرة بسبب أسر العلوية، في قصة طويلة^(٢).

(١) انظر في معجم البلدان، مادة (شجر)، ستجد مخلوقاً، له عين واحدة ورجل واحدة ويد واحدة، وينشد شعراً نصيحاً، ومع ذلك فهذا المخلوق المسمى (الناس) يؤكل!!!

(٢) لياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت: دار صادر.

اتضح للقارئ بما قدمناه أن إقدام المعتصم على فتح عمورية ونخريسيها، وكذلك فتح أنقرة وما حولها، ليس بسبب (نخوة) فردية استجابة لصرخة امرأة بينها وبينه مسافة شهرين، بل لأنه بوصفه حاكم دولة عظمى، يأبى أن تنتقص سيادة هذه الدولة بأي شكل، فما بالك وقد هوجمت أطرافها، وقُتل وأسر من مواطني هذه الدولة الآلاف.

فلو كان الأمر كذلك، فإننا نتساءل: هل مهاجمة فرنسا للجزائر كانت (نخوة) من حاكم فرنسا؛ لأن داي الجزائر ضرب وجه القنصل الفرنسي بمذبة كانت في يده؟ واستمرت آثار هذه النخوة احتلالاً دام نحو قرن ونصف قرن! وهل كانت (نخوة) من الهالك مناحم بيجن ووزير دفاعه شارون أن يهاجموا لبنان في صيف ١٩٨٢ لإخراج المقاومة الفلسطينية منها؛ لأن بعض الفلسطينيين أطلقوا النار على السفير الإسرائيلي في لندن؟ وقد فعلا.

ثم بعد ذلك لو جارينا معنقي الأسطورة، في (النخوة) استجابة لصرخة امرأة، لوجدنا تناقضاً حاداً في الصورة؛ لأن جنود المعتصم الأتراك كانوا يرمحون بخيولهم في بغداد - لا في بلد يسعد شهرين سفيراً - فيطأون المرأة والصبي، وهؤلاء يستغيثون قريباً من أذن أمير المؤمنين فلا يغيثهم قائلاً: «ليبك». انظر معي في سبب انتقال المعتصم بعساكره من بغداد إلى القاطول ثم سامراً في تاريخ الطبري ومن جاء بعده من المؤرخين، أو من كتب البلدانات.

جاء في الطبري: «سبب خروج المعتصم إلى القاطول (...) أن غلماناً الأتراك (...) كانوا عجباً جفاة يركبون الدواب، فيترأكضون في طرق بغداد وشوارعها، فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبي (...)» ويستمر الطبري في سرد الأحداث حتى يصف وقوف شيخ كبير للمعتصم عند انصرافه من مصلى العيد، فشكا له أذاهم وقال له: «لا جزاك الله عن الجوار خيراً! جاورتنا وجنت

بهؤلاء العلوج فأسكتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت بهم نسواننا، وقتلت بهم رجالنا. والمعتمصم يسمع ذلك كله^(١).

(٨)

صارت العبارة الاصطلاحية المكونة من مضاف ومضاف إليه، أعني «نخوة المعتمصم» أسطورة من أساطيرنا في الثقافة العربية المعاصرة. ولو تأخر الزمن قليلاً بأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) لضمها إلى كتابه (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) لتأخذ مكانها إلى جوار تعبيرات مثل: غراب نوح، ومواعيد عرقوب، وكبش إبراهيم، وغيرها. على أن فضل صياغتها النهائية يعود إلى عمر أبو ريشة (ت ١٩٩١م)، في قصيدته التي أنشأها عام ١٩٤٩م، بعنوان: أمتي، ثم غير عنوانها إلى (بعد النكبة) ثم إلى (نخوة المعتمصم)^(٢)، ومطلعها:

أمتي، هل لك بين الأمم منبرٌ للسيف أو للقلم

وفها يحن إلى الماضي المشرق، ويرثي من الحاضر البائس، ويهجو الزعماء العرب بأنهم سمعوا أنات النكالي بأذانهم، غير أنهم لم يجدوهن؛ لأن هذه الاستغاثات لم تلامس (نخوة المعتمصم)، قال:

رُبَّ (وامعتصماه) انطلقت ملء أفواه الصبايا اليثم

لامست أسماعهم لكنها لم تلامس (نخوة المعتمصم)

وحقيقة الأمر أن الزعماء العرب لا تنقصهم النخوة، بل تنقصهم الإمكانات المادية، خذ عندك مثلاً دخول الجيش المصري للقتال في فلسطين

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ط الأعلمي ج ٧ / ٢٣٢، والسعودي: سروج الذهب ج ٤ / ٥٣ - ٥٤.

والكامل لابن الأثير ج ١ / ٤٥١ - ٤٥٢، ومعجم البلدان (مادة سمر) ج ٣ / ١٧٣ - ١٧٥.

(٢) انظر: جميل غلوش: عمر أبو ريشة، حياته وشعره مع نصوص مختارة، بيروت، دار الرواد ١٩٩٤، ص ١٥ وما بعدها.

عام ١٩٤٨م، وهو بداية تكوينه، في أرض لا يعرفها، وميزانيته ٢ مليون جنيه مصري في العام، في حين أن التبرعات التي وصلت إلى بن جوريون - أول رئيس وزراء إسرائيلي - وصلت إلى خمسمائة مليون دولار فقط^(١). ولاحظ أن الجيش المصري يقاتل في فلسطين وما زالت القوات البريطانية في مصر. أليست هذه (نخوة)!

وخذ عندك أن تسليح إسرائيل يفوق الدول العربية مجتمعة، وإذا فقدت طائرة أو دبابة عوضت مجاناً، أما دول المواجهة فمن يعوضها؟ حتى الصديق السوفيتي لم يكن (يتصدق) عليها. ففي حرب رمضان المباركة ١٣٩٣ هـ دفع الرئيس الجزائري المرحوم هواري بومدين قيمة مائتي دبابة للاتحاد السوفيتي بنفسه في موسكو. ودفع الشيخ زايد بن سلطان - رحمه الله - قيمة مائة وستين نقداً. أليست هذه نخوة؟

لكن طبع النفس البشرية التعلق الدائم بالماضي وعده جميلاً مضيئاً مشرقاً مجيداً بكل جوانبه. في حين أن الأمر ليس كذلك. فالشيخ عندما تسمعه يتأفف من حاضره فهو لا يتأفف كراهة للعالم، بل يتأفف من الضعف الذي حلّ به. وما أصدق المتنبي حين قال:

وإذا الشيخ قال أف فما ملّ حياة وإنما الضعف ملاً

فنحن نحن إلى الزمن الذي كنا فيه غزاة لا مفزوين، وكنا في حماية دولة عظمى تستطيع الوصول بجيوشها إلى أبعد الأماكن في العالم القديم.

وتجليات هذه الأسطورة في الشعر العربي المعاصر كثيرة، فمن أراد أن ينزود فعليه بكتاب المرحوم علي عشري زايد^٢ استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر. ويكتفي أن نشير إلى معارضة عبد الله البردوني لبائية

(١) انظر يوميات ديبين بن جوريون، ترجمة دار اجليل، عمان ١٩٨٢

أبي تمام - بعد تغيير حركة الباء إلى الضمة - في قصيدته (أبو تمام وعروبة اليوم)^(١) ومنها:

ما أصدق السيف إن لم ينضه الكذبُ
وأكذب السيف إن لم يصدق الغضبُ
بيض الصفائح أهدى حين تحملها
أيد إذا غلبت يعلو بها الغلبُ
أدهى من الجهل علمٌ يطمئن إلى
أنصاف ناس طغوا بالعلم واغتصبوا
ماذا فعلنا؟ غضبنا كالرجال ولم
نصدق، وقد صدق التنجيم والكتبُ

ويسير باحث شاب واعد، في دراسة التقابل في شعر البردوني، في ركاب الأسطورة، يقول: «يتمثل جانب التباين من المعارضة بين القصيدتين من نواح عدة، تبدأ بالفروق الصارخة التي تمخضت عنها الصور المقارنة بين عصرين: عصر المعتصم والعصر الحالي من حيث المجد العربي والكرامة والنخوة والقوة والنفوذ وسمات الحاكم الفيور على الأمة وسواها من السمات التي كانت قبانت. وتجسد المقارنة مدى التردد (...) الذي حاق بالأمة العربية حالياً فاحتلت فلسطين في مقابل تلبية المعتصم لامرأة واحدة في عمورية»^(٢).

وخالف الشاعر أمل دنقل مجابليه، فهو يتخيل المتنبي في مصر حزينا لأسباب شتى، منها أسر حبيبته عند الروم. وقد سأله كافور عن حزنه فقال^(٣):

(١) ديوان عبد الله البردوني: الأعمال الشعرية الكاملة، صنعاء: الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٤، مع ١ ص ٦٢٤-٦٢٩.
(٢) صادق عبد الحميد القاضي: التقابل واللغة الشعرية - ديوان الشاعر عبد الله البردوني أمودجاً - (رسالة ماجستير) مركز اللغات - جامعة نمز ٢٠٠٤، ص ١٢٢.
(٣) انظر: قصيدة (من مذكرات المتنبي في مصر)، ضمن: أمل دنقل الأعمال الشعرية الكاملة، القاهرة: مبدولي ١٩٩٥، ص ٢٤٠.

ساءلني كافر عن حزني
فقلت : إنها تعيش الآن في بيزنطة
شريدة كالقطة

تصبح : كافوراه .. كافوراه
فصاح في غلامه أن يشتري جارية رومية
تُجلدُ كي تصبح : واروماه واروماه
لكي يكون العين بالعين
والسن بالسن !

وحبنا الله ونعم الوكيل !!

تذييل

للاستزادة من تحليل للأوضاع الحاضرة له علاقة بأسطورتنا، ننصح
بالرجوع إلى ما كتبه تلميذنا النابه / إبراهيم محمد طلحة في (الثقافية).
بعد قانا.. المعتصم بالله (أيهود أولمرت) يؤكد: نحتاج إلى وقت لوقف
إطلاق النار.

العدد ٣٤٨ - ٣ / ٨ / ٢٠٠٦ م.

من نخوة المعتصم إلى النخوة النجادية.

آبة الله العظيمى يورانيوم .

العدد ٣٦١ - ٩ / ١١ / ٢٠٠٦ م.



عن النسق المضمرفي تاريخ الأدب العربي

عن النسق المضمّر في تاريخ الأدب العربي

(١)

على كثرة الكتب المخصصة لتاريخ الأدب العربي في حقبة زمنية سياسية، أو في أقاليم معينة؛ لا نجد دراسات تفحص الأسس المنهجية التي تقوم عليها هذه الكتب، أو آليات التحليل، باستثناء دراستين أولاهما لحسين الواد «في تاريخ الأدب مفاهيم ومناهج»^(١) عالج فيها أهم مشكلات تاريخ الأدب في أربعة كتب هي: تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان، وتاريخ آداب العربية لمصطفى صادق الرافعي، وتاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات. وفي الأدب الجاهلي لطف حسين.

أما الدراسة الثانية فلإلهام عبد الوهاب المفتي «من إشكاليات المنهج في تاريخ الأدب العربي، الشعر العباسي نموذجاً»^(٢)، وتناولت فيها ثلاثة كتب هي:

- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث، لنجيب محمد البهيبي
١٩٥٠ م.

- تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول، لشوقي ضيف ١٩٧٢ م (ط ٢).
- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، لمحمد مصطفى هدارة
١٩٦٣ م.

فأما كتاب حسين الواد فلم يقع بين أيدينا، وأما بحث إلهام المفتي فنحن نتفق معها في أسس النقد عامة، وإن كانت وجهتها قد تخالفها في كثير من

(١) حسين الواد: في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج. تونس ١٩٨٣.

(٢) إلهام عبد الوهاب المفتي: «من إشكاليات المنهج في تاريخ الأدب العربي. الشعر العباسي نموذجاً» النسخة العربية للعلوم الإنسانية - جامعة الكويت، العدد ٨١، شتاء ٢٠٠٣، ص ٨١ - ١١٦

الأحيان. على أننا لاحظنا أنها مستعمل البهيتي مساً رقيقاً بعكس ما صنعت مع زميله.

بدأت المفتي بأن النموذج الذي تتناوله يعاني قصوراً منهجياً في التأسيس النظري وفي استخدام التحليل والتعليل، ومن ثم ما توصل إليه من أحكام، وبذلك تأكدت الحاجة إلى تاريخ جديد للأدب العربي يفتح على المنجز اللساني والنقدي المعاصر. وأشارت إلى دراسة حسين الواد، ثم أفاضت في أن التاريخ للأدب عائد إلى البحث عن صيغة (علمية) تحاكي منهج العلوم الطبيعية. وتحلى ذلك عند سانت بوف وتين وبيرونيتير. لكن حتمية العلوم الطبيعية انكسرت لأن الظاهرة الأدبية مراوغة. فالتعمت المعونة من علوم النفس والاجتماع والتاريخ. وكل هذه دراسات خارجية للأدب تفسره خارج الصيغة اللغوية للنص. ولما كان هذا العلم ملتبساً بالزمان بحكم تسميته، آلت الهيمنة للتاريخ. فصار الأدب تابعاً للتاريخ الذي عد موضوعاً؛ لا أنه فروض تصدق وتكذب.

ثم رأت أن الغربيين تطورت نظرتهم إلى الظاهرة الأدبية على أنها موضوع أصيل لا تابع ثانوي. كما أنها تتجاوز التاريخ بحدوده. أما الأعمال العربية فلم تتطور. ومؤلفوها لا يفصحون عن رؤيتهم للتاريخ أو أسس نقدهم للوقائع حتى لينعب القارئ في التماس علة تسوغ إسباغ العلمية على تأويلاتهم وتحليلاتهم فلا يجد.

ثم ذكرت - بحق - أن قول بعضهم (بالتكاملية) إنما يعني الجمع بين نوافر الأضداد. أما ألفاظ التطور، والزمان، والعصر، فاستمرت خارج البنية المنهجية لأصحابها فأصبح معناها معجمياً خالصاً. ومضت الباحثة في تحليل عينات من الكتابين الثاني والثالث بينة الضعف والتهافت في التعليل وإصدار الأحكام؛ لضعف في الأسس المنهجية.

لكل إنسان، مهما يكن حظه من العلم والثقافة، تحيزات اكتسبها من مجتمعه الصغير في أسرته الصغيرة وأسرته الممتدة، ثم من مجتمعه الكبير في الشارع والمدرسة وأماكن اكتساب الثقافة. وهناك تحيزات يشترك فيها المثقف وغير المثقف، ويزيد المثقف على غيره باكتساب تحيزات ثقافية من خلال تفاعله مع قراءاته ونقاشاته مع أقرانه. وهذه القراءات يكون مصدرها الكتب القديمة والكتابات الحديثة، ولكل منها تحيزاتها؛ من حيث إنها تحمل نظرات وأيديولوجية كاتبها وتحيزات زمن الكتابة. ولاحظ أننا قلنا: «من خلال تفاعله مع...» حتى لا يظن أنه مجرد لوحة بيضاء يكتب فيها دون رد فعل. إنه يحمل ما سماه شيخنا عبد الله الغذامي (النسق المضمَر). وهذا النسق يتضمن صورة (الأنَا) في تجلياتها المختلفة، في مقابل صورة (الآخر) في تجليات عرقية أو قومية أو مذهبية أو دينية أو جنسية... إلخ.

وفي حين تظهر صورة (الأنَا) نقية مكتملة الصفات الطيبة، لا نخدشها (الهئات)؛ تكون صورة (الآخر) نقبضاً. فالآخر في تاريخنا السياسي والأدبي بحمل - قبل لقائنا به فتحاً أو غزواً - مجموعة أفكار وأديان ونحل غير صحيحة. وحين شاركنا بناء الحضارة التي كان الإسلام دينها والعربية لغة ثقافتها؛ نراه يشوّه نقاءنا بما سميناه (حركات هدامة): مذهبية أو سياسية أو اجتماعية، رغم أننا نخوض فيما يخوض فيه. لكننا نبرئ أنفسنا باللقاء (التبعة) عليه وحده. وإذا كان (للذات) أن تُضخم (غدة الفخر) فيها؛ فإنها لا نسبح للآخر أن (يفخر) مثلها بماضيه الزاهر أو بأبائيه على المدينة التي يعيشان فيها جميعاً؛ لأن ذلك (شعوبية مقبلة).

ونأتي إلى اثنين من مؤرخي الأدب العربي هما: محمد مصطفى هذارة وشوقي ضيف - رحمهما الله - لنرى كيف يؤثر (النسق المضمَر) في آرائهما

وتعليلتهما للظواهر غير الأدبية وتجلياتها في الأدب القديم. فرغم تصريحهما أن تقسيم الأدب بحسب العصور السياسية لا يستقيم مع طبائع الأمور^(١١)؛ نجدهما يجعلان التاريخ وما يحور فيه من حراك سياسي واجتماعي الأصل، ويكون الأدب بمثابة التابع للتاريخ. وهذا التاريخ يعاد تركيبه وبناءه، وتعد لبنات البناء حقائق لا أفكاراً قابلة للنقاش، وتحاكم الأفكار الواردة في الأدب - وخاصة الشعر - إلى (حقائق التاريخ ونصوصه)، فإن لم تنطق (الحقائق) بما يُراد لها أن تنطق به؛ يتم إنكارها، وبعد الإنتاج الأدبي (أصدق أنباء من الكتب التاريخية). والمهم أن المؤرخ الأدبي يراوح في المواقع بينهما، ويكون (النسق المضمر) الحكم الفصل.

ونقول، قبل عرض صور من تأثير النسق المضمر عند هذين العلمين، إن ملاحظتنا هنا لا تنغيباً التنقص من علمهما وفضلهما، كل ما في الأمر أن طريقتيهما في التاريخ لكل شيء لا تترضيها منهما ولا من تلاميذهما، وما أكثرهم!!

(١١) محمد مصطفى هذارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ط ٣، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٧م ص ١٧. والكتاب أصله رسالة دكتوراه من آداب الإسكندرية بإشراف محمد خلف الله أحمد، عام ١٩٦٠. وضعت في كتاب أول مرة ١٩٦٣ ثم عام ١٩٦٥. وتظهر شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإسارات. العراق - الجزيرة العربية - إيران. القاهرة: دار المعارف ١٩٨٠ [حقيقة الأمر أن الظلمة خرجت إلى الأسواق عام ١٩٨١]. في المقدمة يذكر أنه خالف المؤرخين الذين جعلوا من العصور السياسية أساساً لتاريخ الأدب، وأنهم جعلوا العصر العباسي ينتهي باقتحام المغول بغداد عام ٦٥٦هـ. إذ في رأيه أن العصر العباسي الأول ينتهي عام ٢٣٣هـ والثاني ينتهي عام ٣٣٤هـ. ففي التاريخ الأخير (لم يعد للخليفة سلطة) وبه يبدأ عصر الدول حتى العصر الحديث، وتكل الأمر إلى نقطة القساري إن كان قد خرج على التاريخ البينسي. ونسأل: أكان الأدب في الأقاليم الإسلامية هذه الحقبة الطويلة بحمل سمات متماثلة أو موحدة. ثم إنه أفرد للأندلس كتاباً خاصاً، مع أن الأدب العربي موجود هناك قبل هذا التاريخ. ونعتمد للقارئ الكريم عن طول الحاشية. ولا بأس في أن يعرف أن الجزء الأول من (عصر الدول والإمارات) منمزع من دخول العراق منذ صدره: لوزود كلمة (إيران) في الغلاف^(١٢)

الشعبوية والزندقة والمجون ثلاث مفردات مترابطة عند مؤرخي أدبنا القديم، لاسيما الأدب العباسي، وبدرجة أقل الأدب في العصر الأموي. وهذه المفردات تؤول في النهاية إلى (الآخر) غير العربي. وعندها يتحول المؤرخ الأدبي إلى قاضٍ من قضاة محاكم التفتيش، مهمته البحث عن الهراطقة والسحرة والمشعوذين، وانتزاع اعترافاتهم بكل وسيلة ممكنة. فإذا لم يجد دليلاً كان عليه أن يؤوك الأقوال و(يتشممها)، ويحاكم النيات. فالآخر مدان بالقوة والفعل. وسنبداً من كتاب هدّارة «التجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري».

في مقدمة الكتاب أخذ هدّارة في تقييم الدراسات التي لها علاقة بموضوعه فذكر منها كتاب محمد جابر عبد العال «حركات الشيعة المتطرفين وأثرها في الحياة الأدبية لمدينة المرقاء إبان العصر العباسي الأول»^(١) وقال عنه - بحق - : «إنني أرى في هذه الدراسة غلوّاً شديداً في تقصي الأثر الشيعي في شعر القرن الثاني»^(٢). وهذه الدراسة تنسب إلى الشيعة كل شخص خرج بأعماله وأقواله من رتبة الإسلام الحنيف!! ويكفي أن تنقل كتب الفرق والمقالات، أو ينقل عن خصم له، أنه سكن الكوفة! أو مرّ بها، أو ولد بها، ليدخل في قائمة المتطرف. والأصل منطقاً وعقلاً أن نترع صفة التشيع والنسب عمّن أعلن خروجه عن تعاليم الإسلام. لكن المنطق العلمي غائب. فالكوفة - في رأي الكاتب «تجمع فيها معتقدات السكان الأصليين من مانوية وزرادشتية، وورثت الخبرة ولهوها.

(١) أصل الكتاب رسالة دكتوراه من آداب القاهرة عام ١٩٥٣م. بإشراف أمين الخولي وحسن إبراهيم حسن والأول من دعاة إقليمية الأدب، والثاني يؤلف في التاريخ. وله كتاب «تاريخ الإسلام السياسي» في عدة أجزاء. ويتميز في كتابته بأنه يمكن الكتابة عن أي أحد دون الرجوع إلى كتب هذا الأحد. ناهيك عن الاحتجاب غير الواهي من الكتب الاستشرافية فتخيل كيف تكون كتابة التلميح

(٢) هدّارة التجاهات. ص ١٣

وظهرت فيها الفرق الغالية التي تكفر بالقيامة وبالجنة وبالنار، ومن ثم سرى فيها تيار الإباحية والتحلل من قيود الدين والأخلاق^(١).

والعجيب أن نقد هذارة يمتحي بعد المقدمة، فهو يغترف من هذا العمل في كثير من المواضع دوغما تكبير^(٢). وإذا تلمسنا معنى الزندقة عند هذارة وجدناه يقر أنها لم تكن تعني شيئا واحداً؛ فقد تكون اعتناق نحلة من التحلل السابقة على ظهور الإسلام كالشيعة مثلاً، وقد تكون بتفضيل غير العرب على العرب، أو تكون مجاهرة بالأثام. كما أقر أن الاتهام بالزندقة وخاصة بين الشعراء كان يستخدم سلاح من اخفاء النقضاء على خصومهم السياسيين، كما كان يستخدمه الشعراء بدافع خصومة الأدبية أحياناً^(٣). ومع ذلك نجد عنده هذه الأحكام الأدبية^(٤).

- في (ص ٢٠٥) يرى أن الأثر الفارسي كان قوياً في مد تيار المنجون بالقوة وأخياً، مضيفاً إلى ذلك أثر الغلاة فيه، اعتماداً على تأكيد (!) فلهوزن، بوجود صلة بين المنجان والشرقيين.

- في (ص ٢٤٥-٢٤٦) يذكر أن مطيع بن إياس كان لا يبالي بالدين وفرائضه، ويجهر بارتكاب المحرمات والفواحش، ويبحث الناس على ذلك، غير أن هذارة يصف أشعاره هذه بأنها تصور نزعة التنوير أو الزندقة الفكرية، وهي أولى درجاتها!!

ومن الشبر حقاً أن ملاحقة الزنادقة منذ أيام المهدي، عام ١٦٦ هـ كانت مركزة على أشخاص دون أشخاص، في حين أن المأخوذ والمنزوك يسلكان

١) محمد جابر عبد الجبار، حركات الشيعة المتطرفين ص ١٠٣. وهذا القول - إن صح - يطبق على كل الملن في دعوى أنهم في الإسلام، فلا بد أن أمنها لم يكونوا مسلمين، وبالجملة لا بد لهم أن لهم عقائد وتعلل متواترة محذرة للإسلام، ولا بد أن يترك كل ذلك اثره في حياتهم الاجتماعية، طمأنة الكوفة بحق الامتياز.

٢) انظر هذارة، ص ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ٢٠٩، ٢١٠.

٣) هذارة ص ٢٤٠.

٤) علامات الاستهزاء والتأثر التي سنأتي من وضعها.

سلوكًا شعريًا واجتماعيًا واحدًا. وقد أشاد هدارة بصنيع المهدي وذكر (ص ٧٠) أن ابنه الهادي تبع خطأ أبيه رغم أنه كان صاحب شراب ومجون!! وطبعًا لا شيء على الخليفة.

نقول: أتهم بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وأبو دلامة وأبو العتاهية وابن المقفع وأبو نواس - وغيرهم - بهذه التهمة؛ فزرى شعراء تدل أخبارهم وأشعارهم على التحفظ والوقار يقتلون في حين لا يصيب المجاهرين أذى؛ مما يدل على أنها كتهممة الشيوعية في ستينات القرن العشرين، أو تهمة الإرهاب لمن يطلق رأياً مخالفاً لسيد العالم الجديد الولايات المتحدة الأمريكية الآن. فهذا بنا نتائج رحلتنا وننظر رأي محاكم التفتيش فيهم.

في (ص ١٠٩) يذكر أن أبا دلامة، مضحك الخلفاء: السفاح فالمنصور فالمهدي، يهاجم الصوم في صراحة تامة ويتهمك بالصلاة. فلا تعجب لأنه لم يُقتل، لكن لك أن تعجب من قول المؤلف (ص ٢٤٣-٢٤٤) من أن هذا لا يرقى إلى مرتبة الزندقة، فقد هجا أبا مسلم الخراساني!!

في (ص ٢٣٥) يعجب من الأشعار المنسوبة إلى صالح بن عبد القدوس التي وصلتنا وأكثرها أمثال وحكم وآداب، لا تنفق إطلاقاً مع ما اتهم به من الزندقة^(١). لكن هذا لا يكفي لعدم إدانة الشاعر. فقد ذكر المرتضى يستين قالهما صالح «يُشتمُّ منهما سوء مذهبه واعتقاده». وهما كافيان للإطاحة بكل حكم الشاعر وآدابه وأمثاله لمجرد (الشم). ويشدد القاضي برهة قصيرة كيف يوفق بين شعر صالح المستقيم وزندقته، إلى أن يستبين له وجه الحق في «أن يكون هذا النوع من الشعر ستاراً يخفي وراءه زندقته وسوء معتقده. بل ربما بالغ صالح في إقامة هذا الستار، حتى لنجدته يجلس للوعظ في مسجد البصرة (ص ٢٤٥)». لك الله بالصالح! فلا أشعارك الستار ولا جلوسك للوعظ يبرؤك يازنديق.

(١) تعجب من ذلك ابن البيت العباسي الأمير عبد الله بن المعتز. طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٦م، ص ٩١-٩٢.

أبو العتاهية أغلب أشعاره في الزهد والوعظ. وله أشعار في الغزل والهجاء والنجون. وقد اتهمه بعض معاصريه وبعض المحدثين بالكذب في زهده. كما حُبس على الزندقة ثم أطلق. فما رأي قاضينا الأدبي؟ يقول مؤلفنا (ص ٢٤٦): «الحقيقة أن زندقة أبي العتاهية كانت شيئاً واقعاً معروفاً في عصره، لأن الأصفهاني يذكر أن حمدويه صاحب ديوان الزنادقة أراد أن يأخذه ففرغ من ذلك وقعد حجاًماً!.

وبالطبع لم يَمدِّم أبو العتاهية من يدفع عنه التهمة كمحمد أحمد براتق، اعتماداً على أنه «سمير للخلفاء. ولا يمكن أن يتزندق في رحابهم» فيحتد هدارة لضعف حجة براتق. ويقول - ومعه بعض الحق - : «وكأن كل الشعراء الزنادقة الملحدين كانوا مبعدين عن رحاب الخلفاء، وكأن هذه الرحاب تستطيع أن تدخل في قلوب الواردين عليها فتكشف الزنديق وتُظهر الورع، فتردّ هذا وتقبل ذاك (ص ٢٦٦)». ونقول: إن رحاب الخلفاء كانت تقبل بعض الموصوفين بتلك الصفات، ولم يكن بها حاجة إلى قلوب الواردين عليها؛ إذ هي عارفة بظواهرهم البادية للعيان أقوالاً وسلوكاً، فهذا يجاهر بثقل الشعائر الدينية ويستعفي الخليفة نفسه من حضور صلاة الجماعة، وهذا يدعو إلى عصيان جبار السماوات. ناهيك عن السلوك الشائن لأكثر اللاتذنين برحابهم، ومع ذلك لم يحدث لهؤلاء ما يكثر صفوهم، فرحابهم لا تُبعد إلا لأسباب سياسية سواء عرفناها الآن أو جهلناها.

وبعد: أكان خلفاء بني العباس ورعين حقاً؟ إن الأخبار الواردة عنهم تورد لهم صوراً مختلفة؛ فهم يأمرّون بإزهاق النفس لأدنى تهمة، ويجزّلون للشعراء المداحين الأعطيات والجوائز، ويقيمون في قصورهم مجالس الشراب والغناء، ولكل واحد منهم ألف جارية (هذا عند التخفيض إلى الثلث)، وروي عنهم الاستماع إلى الوعظ والتأثر به إلى حد البكاء وذرف الدموع. ويصح القول

إنهم جميعاً كانوا غارقين في الترف إلى حد أن أكثرهم مات شاباً، هذا مع استثناء أبي جعفر المنصور الذي مات عن ٦٥ سنة^(١). فإلى القارئ هذه القائمة مستخرجة من تاريخ المسعودي:

- مات المهدي عن ٤٣ سنة (٣/٣١٩).
 - مات الهادي عن ٢٦ سنة (٣/٣٣٤).
 - مات الرشيد عن ٤٤ سنة (٣/٣٤٧).
 - مات المأمون عن ٤٩ سنة (٤/٤).
 - مات المعتصم عن ٤٦ سنة (٤/٤٦).
 - مات الواثق عن ٣٨ سنة (٤/٦٥).
 - مات المتصر عن ٢٥ سنة (٤/١٢٩).
 - مات المعتز بعد خلعه بستة أيام عن ٢٤ سنة (٤/١٦٦).
 - مات المعتمد عن ٢٥ سنة (٤/١٦٦).
 - مات المكتفي عن ٣١ سنة (٤/٢٧٥).
- ولم ندرج الذين قتلوا مع أنهم قُتلوا صغاراً أيضاً.

نحن العرب في أدبياتنا نفخر بأن الحضارة العربية الإسلامية إنسانية لا عنصرية، فقد شارك في صنعها أجناس كثيرة، وأن التنوع الثقافي والأدبي مصدر فخر لنا. لكن التشكيك في دور غيرنا مهم، حتى لا نشوّه نقاء أدبنا المنجلي في فخرات عمرو بن كلثوم ونقائض الثلاثي: الأخطل، وجريرو، والفرزدق. فالقاضي هدّارة يرى أن لابن المقفع دوراً خطيراً في تنمية شعور الموالي من الفرس بامتيازهم عن العرب، وأن نقله التراث الفارسي ليس خدمة للثقافة العربية (!) بل للتفاخر بهذه الثقافة على العرب (ص ٣٩٩-٤٠٠).

(١) علي بن الحسين المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: المكتبة التجارية ١٩٦٥، ج ٣ / ٢٩٤

والعرب - كثيرهم - لها مثالب كما لهم مناقب، وترك أحد الموضوعين يعني نقصاً في الصورة. لكن هدارة - كثيره - يرى أن (الشعوبيين) أخذوا يؤلفون في مثالب العرب (ص ٤١٤-٤١٥)، كأبي عبيدة معمر بن المثنى وابن الكلبي. والأمير في رأينا - هين؛ فلهذين العلمين كتب في فضائل العرب ~~في فضائل العرب~~ أو فضائل طوائف منها^(١). فالمسألة مسألة حرية للكتابة في كل موضوع لا أكثر.

وببالغ هدارة في التحري عن الشعوبيين إلى أن عدّ أبا حنيفة النعمان وسيوه!! شعوبيين (ص ٤١٦).

وإذا حدثنا تاريخ أوروبا الوسيط أن بعض الكرادلة في محاكم التفتيش ذاقوا من نفس الكأس التي جرّعوا بها ضحاياهم. فإن في الكتاب الذي بين أيدينا شيئاً يشبه ذلك. جاء في (ص ٤٧٥): «كان موضوع الخمر من أكثر الموضوعات جدلاً عند الفقهاء (!) لعدم وجود نص قاطع بالتحريم!! والمعلوم أن الجدل - ولم يكن كثيراً - إنما كان دائراً حول (علة تحريمها) أهي الإسكار أم غير ذلك؟ أما التحريم فقطمى عما هو معلوم من الدين بالضرورة. وإذا نجأوزنا - جدلاً - قوله بعدم وجود نص قاطع على التحريم، فما هو المسوغ لقوله بعدم صفحتين فقط (ص ٤٧٧): «إن غلاة الشيعة ومنظر فيهم قد أنكروا ما في الخمر من تحريم فأباحوا شربها؟ لماذا يعيب على هؤلاء شرب ما يؤكد حليته؟»

(٤)

ليست محكمة التفتيش عند العلامة شوقي ضيف بأقل هولاء ما هي عليه عند هدارة. بل إنها تتفوق عليها؛ لطول التاريخ الذي يتناوله، نراه يتحدث عن

^(١) انظر في الأمرين محمد بن إسحاق الطبري الوراق. كتاب الفهرست، تحقيق رضا نجف، طهران ١٩٧١م.

الزندقة بأنها «تشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والإثم»^(١). ولا نرى حاجة إلى إعادة كلامنا، ويكفي أن ننظر في الأحكام.

يقول في (ص ٨١): «قُتل كثيرون من رءوس الزنادقة لهذا العصر يتقدمهم ابن المقفع الذي قُتل لعهد المنصور... وصالح بن عبد القدوس، وكان يعنتق المانوية ويحاضر فيها وينظر.. فقتل وصلب على الجسر بيفداد نكالا للناس وعظا. ومنهم بشار وكان يعلن إشادته بالنار معبودة قومه المجوس ويفضلها على الطين، كما يفضل إبليس على الإنسان...».

فهذه أحكام جازمة غير قابلة للنقض حتى مع وجود (استثاف) في المصادر التي رجع إليها تبطل الجزم. فهو يأتي في حيز مخصص لابن المقفع، ويتأمل في الروايات المختلفة عن سبب تعذيبه وقلته، ويثبت سببا لكنه يؤكد زندقة المقتول. جاء في (ص ٥٠٩): «... ويقال إن المنصور إنما أمر بقتله لما ثبت عنده من زندقته وكيدته للإسلام. ويبدو أن التعليل الأول لمقتله هو الصحيح. لما صُلب في صيغة الأمان على المنصور تصعبا امتن فيه كرامته ووطنها بالأقدام... وليس معنى استظهارنا أن يكون الأمان السبب الحقيقي في قتل ابن المقفع أننا ننفي عنه الزندقة، فقد شهد بها كثيرون من معاصريه ومن جاءوا بعده». ولا تعليق لنا مادام الذين أصدروا أحكام القتل عادلين متبشرين من أحكامهم. فمؤرخنا يؤكد ذلك بعبارات النفي والخصر كأنه حضر الجلسات: «وما لا ريب فيه أن خلفاء بني العباس لم يكونوا يقتلون على الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها ثبوتا لا يرقى إليه شك، (ص ٨٣)». وهذه مبالغة لم يكن هؤلاء الخلفاء أنفسهم يرضونها.

(١) شوقي خليف: تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٦م، ص ٧٩ والطبعة الأولى (وهي لا تختلف في حرف) صادرة عام ١٩٦٦م. ونشير في المتن إلى صفحات هذا الكتاب دون ذكر العنوان.

وفي مواضع آخر (ص ٣٨٢) يتحدث عن أسباب كثرة شعراء المجون واخمر كثرة مفرطة. فيجعل أول الأسباب أن أكثر الشعراء من الفرس (!) 'وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد...'.
 وفي ظني أن الإسلام له الظاهر. وقد قدما أن بعض (المهاجرين) لم يصبهم أذى. لرضا القيادة السياسية عنهم. وما أبو دلالة عنا ببعيد؛ فله أن يجاهر بالمواقف كما يشاء. والتعليل طريف جداً؛ إذ لم يأخذ القاضي بوثائق القدماء في هذه الحالة فقد كان أبو دلالة بطرف الخلفاء بنوادره. ويقول أبو الفرج: كان فاسد الدين رديء المذهب، مرتكباً للمحارم، مضيعاً للفروض، مجاهرًا بذلك، وكان يعلم هذا من يعرف به فيتجافى عنه للطف محله. اهـ. قد يكون منه لهو وميل للمجون. أما أن يكون فاسد الدين مخلاً بالفروض، للخيرين الأولين وما يشبههما، فمبالغة في الحكم. إذا كان يذهب إلى الدعاة شأنه في دعابته الأخرى (ص ٢٩٦).

وهذه (الأسباب المخففة) لا وجود لها عند آخرين بعيدين عن رضا الخليفة. كبشار بن برد مثلاً. فبشار تأثر بترجمات ابن المقفع فأحدثت تشويشاً في فكره. ثم تحول زنديقاً يفيض الدين الخفيف. حتى إذا نجحت الثورة العباسية تحول شعوبياً يفيض العرب والمروبة (ص ٢٠٧).

وهذه الفترة حوت عجائب منها:

- أ- تأثر بشار بترجمات ابن المقفع. مع أنها لم تظهر إلا بعد نجاح الثورة العباسية، وفي عهد المنصور تحديداً. فكيف تم ذلك؟
- ب- ليس شرطاً أن كل زنديق يفيض الدين الخفيف.
- ج- تحول إلى الشعوبية ويفيض العرب بعد نجاح الثورة العباسية. فلم لا يكون ذلك قبل نجاحها؟

د- أن بشاراً الذي عاش بين (٩٥-١٦٧هـ) ظل مدة ٤٤ سنة مجاهرًا بالزندقة والشموعية في عهود ثلاثة خلفاء (١٣٢-١٦٧هـ) ولم يحدث له أذى إلا يوم مقتله؛ هذا إذا استثنينا خوفه من هجاء أبي الشمقمق وجمّاد عجرد.

فإذا طلبنا شاهد نفي (من أهلها) قال لنا ابن المعتز العباسي ما يلي:
«الصحيح عند أهل العلم أن المهدي قتله لهجوه يعقوب بن داود وزيره بقوله:

بني أمية هبوا طال نومكم^١ إن الخليفة يعقوب بن داود^٢
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزرق والعود»^(١)

وبما أننا لسنا في موقف المحامي عن بشار فلن نقول: ربما وضعت هذه الأبيات ونسبت إليه حتى تهلكه.

من أعجب الأحكام عن بشار قوله (ص ٢١٤): «روى له أبو الفرج ميمية رثى بها خمسة من أصدقائه نظير أسى وحزنًا. ولا نشك في أنهم جميعًا قتلوا على الزندقة (!)؛ إذ نراه فيها جزءًا أشد الجزع ملتحاً أشد الالتباع (!)» فواعجابه للسبب والتعليل !!

كذلك يدين قاضينا الشاعر صالح بن عبد القدوس، الذي أظهر عقيدته بعد قيام الدولة العباسية في مسجد البصرة إلى أن حاكمه الرشيد بنفسه، فحاول التبرؤ من كل ما نُسب إليه، لكنه أفحمه (!) بيته:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه (!)
فأمر بضرب عنقه، وصلب على الجسر (٣٩٤).

أما أبو العتاهية فهو مع القدماء الذين شككوا في زهده. وبعد أن قلب الاحتمالات توصل إلى أنه «مانوي من نط جديده، إذ يمزج بين المانوية

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، دار المعارف، ص ٢٥

والإسلام، إلا إذا كان قد موّه عن مانويته الخالصة بادعائه وحدانية ربه
(٢٤١-٢٤٢)». فأبو العتاهية في رأيه واحد من اثنين:

- إما مزاج بين تعاليم المانوية والإسلام، وماذا يضير الإسلام إن شابحت
المانوية بعض تعاليمه؟

- إما مانوي خالص، يدّعي كذباً توحيد ربه .

٨ ولا نجاة للشاعر مع المؤرخين المحدثين في حين أنه نجا بنفسه قديماً .

وإذا كان صالح وأبو العتاهية مموهين، وكلاهما لم يجاهر بالمعاصي أو
يحبب الناس فيها، فهناك أمير المجاهرين بكل قبيح وشاذ، أعني أبو نواس الذي
ظل مقرباً من الوزراء والكتاب وأصحاب السلطة، ومدحهم ونال جوائزهم،
حتى لصق بالخليفة الأمين، ولم يُقتل على الزندقة. فما قول محاكم التفتيش في
إلحاده؟ القول هين، والأعذار جاهزة، والنفوذ إلى دخائل النفوس الطيبة
حاضر. فإلحاد أبي نواس (ص ٢٢٦-٢٢٧): «إلحاد عابر، لا إلحاد عقيدة كالإلحاد
ريشار (...) أما أبو نواس فلم يكن يعتنق الزندقة، إنما كان يعتنق المجون (...)»
فصاح بالدين الحنيف كأنه يرى فيه عائقاً عن خمرة ومجونه وإثمه. وهو من
هذه الناحية مضطرب أشد الاضطراب، تارة يعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث
ولا نشور، وتارة يعلن أنه مؤمن عاصي. ولا تعليق!

(٥)

ونرى شوقي ضيف أشد عنفاً وحماسة من هدارة، فلو عدنا القهقري إلى
العصر الأموي لرأينا نفس المنطلقات عنده لا تتغير، فهو ينقل عن إسماعيل بن
يسار قوله:

واسألي إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا، وقد سَوَّ ن سفاهاً بناتكم في التراب

ويعلق بقوله: «هذه نزعة شعوبية واضحة، فإسماعيل لا يحاول أن يفخر بالفرس فقط، بل يحاول أن يضمهم فوق العرب، إذ يرجع إلى التاريخ القديم في الجاهلية... ونراه يشير إلى ما كان عليه العرب من غلظ وجفوة؛ إذ كانوا يثدون بناتهم»^(١).

نعم؛ للعرب أن يفخروا على غيرهم، أما (الآخر) فلا يحق له ذلك، وإن انطلق من موقف يوافقه القرآن الكريم عليه، بل إن مؤرخنا يدافع عن المظالم التي أوقعها الحكام على رءوس آل البيت ويسوّغها. انظر إلى قوله: «وتدل النصوص التاريخية في هذا العصر على أن بني أمية إنما قتلوا الحسين وزيد بن علي صاحب مذهب الزيدية؛ لأنهما خالفا الإمام وطالبا بالخلافة. أما بعد ذلك فكان الأمويون يعاملون الهاشميين معاملة حسنة»^(٢).

(النصوص التاريخية) التي يحتكم إليها تقول: إن سيدنا الحسين بن علي عليه السلام حين حصره جيش بالآلاف طلب منهم أن يسمحوا له بالعودة إلى الحجاز، فرفضوا لأن الأمر بقتله والتمثيل به قد صدر. و(النصوص التاريخية) تقول: إن سيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ظل يُسبّ على منابر المساجد ستين عاماً؛ فتنشأ أجيال في هذا الجو الموبوء وتحسب أن هذا السلوك القبيح من شعائر الدين. أفهذا من (المعاملة الحسنة)؟ وبعد ف (النصوص التاريخية) تقول: إن الجيش الأموي اقتحم المدينة في موقعة الحرة وفعل بأبناء الأنصار أفعالاً لا تختلف في شيء عما فعله الصرب بأهل البوسنة أو ما يفعله شارون بالفلسطينيين، مع اختلاف الدين طبعاً.

(١) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، (ط٣)، القاهرة: دار المعارف ١٩٦٥م، ص ١١٦ والكتاب طبعه الأملح في ١٩٦٢م، والكتابة في ١٩٥٩م. ولم يتغير حرف واحد في الكتاب حتى الآن منذ الطبعة الثانية. الأملح

الزولي

(٢) التطور والتجديد ص ٩٧.

غير أن الاستناد على (النصوص التاريخية) لا يلتزم في كل حال. ففي حديثه عن الحجاج بن يوسف ينحّي كل الروايات عنه؛ لأنها مغرّضة. يقول: «والحق أن الحجاج شوهه الرواة في العصر العباسي إرضاءً للعلويين والعباسيين جميعاً. وطبعاً كان فيه قسوة ولكنها كانت قسوة ضرورية. وإن من يقرأ وصف جرير له ليعرف أنه كان يتبع سياسة حازمة ورشيدة!!!»^(١). ونخشى أن نضجر القراء بتعليقنا، لكن لا بأس من القول: أتحب أن يطبق عليك الحجاج شيئاً من سياسته الحازمة الرشيدة؟ ثم كيف يصبح العمل الشعري وثيقة لا تكذب في مدح كاذب؟ ما قولكم لو سمعنا رأي خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: لو أن كل الأمم تخابثنا يوم القيامة، فأخرجت كل أمة خبيثها، ثم أخرجنا الحجاج لغلبناهم»^(٢). وبالتأكيد فاخبت نيس عليه وحده، بل يشمل من ولّاه، وإلا كنا كمن يمسك بالبردة ويترك الحمار وحيداً.

(٦)

والمؤرخ الأدبي؛ لاعتماده على غيره في التخصصات المختلفة؛ مضطر لأن يبدي رأياً في كل تخصص. وقد يأخذه من قديم أو محدث، أو يلفق بين الآراء. وقد يعتنق أو يبدي رأياً في سطور معدودات ببساطة شديدة، في حين أن المسألة ليست كذلك. ولعلّ مسألة المهدي المنتظر في الشعر القديم من هذه الباب. فأما هدارة فبرى أن تأثير الثقافة الفارسية في العصر العباسي لم تقتصر على فرق الثنوية المختلفة، بل أثرت على ما سماه (فرق الغلاة من الشيعة) «الذين نادوا بفكرة المهدي المنتظر. وهي فكرة فارسية أصلاً. ولدت في أثناء ثورة المختار التي كانت في أساسها ثورة موال»^(٣).

(١) التطور والتجديد ص ١٥٤

(٢) أبو النرجس عبد الرحمن بن علي الخواري صفة العضوة، القاهرة: دار الكتب الحديثة ص ٨٩.

(٣) هدارة الخجاعات، ص ٩٤

وأما شوقي ضيف فقد كان اللطف في تعبيره حين زعم في أكثر من موضع وكتاب أنها فكرة شيعية بدأت بالكيسانية، ثم نجدها عند الشيعة في كل عصر^(١).

ويؤسفنا أن نقول: بل هي فكرة أو عقيدة إسلامية تشمل المسلمين جميعاً ولم ينكرها، دون دليل مقنع، غير قلة قليلة هم: ابن خلدون، ورشيد رضا، وأحمد أمين، ورئيس محاكم قطر السابق عبد الله زيد آل محمود.

وسنورد هنا أسماء المحدثين والعلماء من السنة فقط، الذين أثبتوا أحاديث المهدي في كتبهم.

أخرجها عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ) في مصنفه، الجزء الحادي عشر الأحاديث ٢٠٧٦٩-٢٠٧٧٩، بتحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣١٥/٧ في بعض أحاديثه: إن رجاله رجال الصحيح.

أخرجها ابن ماجة القزويني (ت ٢٧٣هـ) ٢٢/٢-٢٤ الأحاديث ٤٠٨٢-٤٠٨٨ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (مطبعة عيسى الحلبي بالقاهرة) والحديث ٤٠٨٤ إسناده صحيح ورجاله ثقات.

وقال الحاكم فيه: صحيح على شرط الشيخين البخاري ومسلم.

أخرجها أبو داود (ت ٢٧٥هـ) في سننه (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة بالقاهرة) ١٠٦/٤-١٠٩ (كتاب المهدي) أرقام ٤٢٧٩ - ٤٢٩٠.

أخرجها الترمذي (ت ٢٧٩هـ) في الجامع الصحيح المسمى بالسنن (تحقيق عطوة عوض مطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة)، الجزء الرابع، الأحاديث ٢٢٣٠-٢٢٣٢. وقال في اثنين من أحاديثه: حسن صحيح.

(١) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي، ط ١٩٧٦ ص ٣١٥ وما بعدها. تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول، ص ٣٠٥ وما بعدها. تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني ص ٣٨٥ وما بعدها وكلها - كما يمتد انتشار - صادرة من دار المعارف بالقاهرة.

أخرجها الطبراني (ت ٣٦٠هـ) في المعجم الكبير (بناية حمدي السلفي، مطبعة الوطن العربي، بغداد)، الجزء العاشر، الأحاديث ١٢١٣-١٢٣١ في مسند عبد الله بن مسعود.

أخرجها الحاكم (ت ٤٠٥هـ) في المستدرک على الصحيحين ٤/ ٤٦٤، ٤/ ٥٥٧. وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي في تلخيص المستدرک.

أخرجها البغوي (ت ٥١٠هـ) في مصابيح السنة (مكتبة محمد علي صبيح بالقاهرة) وعد بعضها صحاحاً وبعضها حسناً.

ابن نيمية (ت ٧٢٨هـ) في منهاج السنة ٤/ ٢١١ (دار إحياء السنة بالقاهرة) قال: إن الأحاديث التي يحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة، رواها أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم (وأورد بعضها) وهذه الأحاديث غلط فيها طوائف أنكرها.

الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في تلخيص المستدرک صحح بعض الأحاديث. ابن القيم (ت ٧٥١هـ) في: المنار المنيف في الصحيح والضعيف (تحقيق: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت) الفصل ٤٥ ص ص ١٢٩-١٤٣، أخذت ٣٢٥ فما بعد. وقال: هذه الأحاديث أربعة أقسام: صحاح، وحسن، وغرائب، وموضوعة.

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في البداية والنهاية (تحقيق طه محمد الزيني، دار الكتب الحديثة بالقاهرة) أورد تسماً من أحاديث المهدي وصححها ١/ ٢٤-٣٢.

الهيثمي (ت ٨٠٧هـ) في مجمع الزوائد (مكتبة القدسي بالقاهرة) ٧/ ٣١٣-٣١٨ باب ما جاء في المهدي. وصحح كثيراً من الروايات الواردة فيه.

محمد صديق حسن القنوجي (ت ١٣٠٧هـ) في كتاب «الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة» مطبعة المدني بالقاهرة ص ص ١١٢-١١٣،

١٤٥-١٤٥ . ذكر أنها كثيراً جداً وتبلغ حد التواتر. كما ذكر عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم ما يفيد مجموعه العلم القطعي.

محمد بن جعفر الكتاني (ت ١٣٤٥هـ) في نظم المتناثر من الحديث المتواتر (المطبعة المولوية بفاس ١٣٢٨هـ) في الحديث رقم ٢٩٨ ذكر أحاديث خروج المهدي المنتظر الفاطمي، وذكر رواية عشرين من الصحابة ومخرجها. ورد كلام ابن خلدون كما فعل القنوجي.

المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ) في تحفة الأحوذى (تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية الحديثة بالقاهرة) ٦/ ٤٨٤ يؤكد ما جاء في الترمذي.

الشيخ محمد الخضر حسين (ت ١٣٧٧هـ) نشر بحثاً في مجلة التمدن الإسلامي - دمشق في المجلد، العدد ٣٥، ٣٦ (١٣٧٠هـ) ورد بحسم على منكري أحاديث المهدي، إذ أورد اعتراف ابن خلدون - رغم إنكاره - بسلامة قلة قليلة من النقد. وعقب «متى ثبت حديث واحد من هذه الأحاديث وسلم من النقد كفى في العلم بما تضمنه من ظهور رجل في آخر الزمان» ثم بين أن الصحابة الذين رويت من طرفهم أحاديث المهدي بلغوا ٢٧ صحابياً .

أحمد بن الصديق الغماري (ت ٣٨٠هـ) وضع كتاباً للرد على ترهات ابن خلدون حول الموضوع، وسماه «إبراز الوهم المكنون في كلام ابن خلدون، مطبعة الترقى بدمشق ١٣٤٧هـ).

محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٢هـ) نشر في مجلة التمدن الإسلامي ج ٢٨، ٢٧، ص ٦٤٢ بحثاً في باب «من القراء وإليه» وقال فيه: إن في خروج المهدي أحاديث كثيرة صحيحة، قسم كبير منها له أسانيد صحيحة (أورد قسماً منها) وهاجم رشيد رضا وغيره الذين لم يتبعوا ما ورد في المهدي حديثاً حديثاً، ولا توسعوا في طلب ما لكل حديث منها من الأسانيد، ولو فعلوا لوجدوا ما تقوم به الحجة في الأمور الغيبية التي زعم البعض أنها لا تثبت

إلا بحديث متواتر. وختم الألباني أن عقيدة خروج المهدي ثابتة متواترة عنه صلى الله عليه وآله وسلم، يجب الإيمان بها، لأنها من أمور الغيب. والإيمان بالغيب من صفات المتقين.

ألقى الشيخ عبد المحسن بن محمد العباد محاضرة بعنوان: «عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر» نشرت في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الثالث، من السنة الأولى، لشهر ذي القعدة ١٣٨٨ هـ. احتوت على عشرة مطالب. قال في ختامها: «فلا عبرة بقول من قفا ما ليس له به علم فقال: إن الأحاديث في المهدي لا تصح نسبتها إلى رسول الله ﷺ؛ لأنها من وضع الشيعة».

وعقب الشيخ عبد العزيز بن باز على المحاضرة نفسها في ذيلها، بأن أمر المهدي معلوم والأحاديث فيه متواترة، وقد رأينا أهل العلم أثبتوا أشياء كثيرة بأقل من ذلك. وأن جمهور أهل العلم متفقون على ثبوت أمر المهدي وأنه حق، وأنه سيخرج في آخر الزمان.

(١-٧)

يذكر شوقي ضيف «أن اللغويين ينفرون من الاستشهاد بأشعار المكين من مثل عمر بن أبي ربيعة وعبد الله بن قيس الرقيات، فقد كانوا لا يوثقونهم ولا يعدونهم فصحاء؛ لهذا الاختلاط بالأعاجم الذي صاروا إليه»^(١).

ونرى أن المعاجم وكتب النحو لا تؤيد هذا الزعم. إذ لو نظرنا في أكبر المعاجم القديمة، (نعني لسان العرب لابن منظور، الذي هو ضم خمسة معاجم قبله) لوجدنا شواهد للمذكورين في أربعة من الكتب التي أدرجت فيها. ولسهولة الوصول إلى النتيجة ننصح القارئ بالعودة إلى كتاب ياسين الأيوبي

(١) شوقي ضيف الشعر والغناء في المدينة ومكة للعصر بني أمية، ط ٥، القاهرة: دار المعارف ١٩٩٢ ص ٢٢٣.
وبلاحظ أن الطعة الأولى صدرت ١٩٤٩ بعنوان معدل غير أن الأحكام فيها واحدة

«معجم الشعراء في لسان العرب»، وإن أراد التوسع فعليه بكتاب خليل عمارة
ورفيقه «فهارس لسان العرب».

وإذا جئنا إلى كتب النحو فيكتفينا اختيار هذه المقالة في كتاب سيويه، إذ
هو إمام النحاة، وهو قريب العهد بزمان هؤلاء (توفي شاباً في نحو ١٨٠هـ)
نجد في الكتاب ثمانية عشر شاهداً لعمر بن أبي ربيعة، وأربعة شواهد لعبد الله
ابن الرقيات، وشاهدين لرفيقي دربهما: الأحوص ونصيب.

أما الزعم بأن الاختلاط بالأعاجم هو الذي أبعد شعرهم عن الاحتجاج
فوهوم وقع فيه معظم من كتب عن الاحتجاج بالشعر في الدرس اللغوي
القديم؛ اعتماداً على سوء فهم لعبارات وردت في المزهري للسيوطي
(ت ٩١١هـ)، وخزانة الأدب للبغدادي (ت ١٠٩٣هـ) وكان من الأفضل
فحص مقولات هذين العلمين^(١)، من خلال النظر في كتب النحو والبلاغة.
ولنا عودة إلى هذا الموضوع في بحث آخر.

أقول: لو كان الاختلاط سبباً في الرفض، لما وجدنا للأعشى الكبير ولا
لعدي بن زيد العبادي، ولا للناطقة الذبياني شاهداً في كتب النحو. ونحيل
القارئ إلى فهارس كتاب سيويه ليرى شواهدهم هناك.

(٢-٧)

وذكر هذارة (ص ٥٣٥) أن الخليل بن أحمد نظر في الشعر الجاهلي
يسخره أوزانه فعرّف منها خمسة عشر وزناً، ثم جاء أبو الحسن الأفش
فاستدرك على الخليل وزناً آخر، استخدمه الجاهليون نادراً، ولكنه مع ذلك
وجد في أشعارهم.

(١) انظر: السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد الموني وعلي محمد البحايي
ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: ط عيسى الحلبي ١٩٥٨ ج ١ / ٢١١ وما بعدها. وعبد القادر بن
عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط ٢، القاهرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١ / ٦

ونقول: إن استدراك الأخفش بحرًا زائدًا على ما ذكر الخليل أسطورة لم تثبت صحتها. والأخفش أول من يكذبها. فلأخفش كتاب في العروض والقافية أخرج ثلاث مرات، على أيدي ثلاثة من المحققين. ولا اثر لهذه الأسطورة فيه. وكان هو نفسه أول من سيذكرها ويفخر بها. وإذا افترضنا جدلاً أنه قال ذلك على فراش الموت، كما في أفلام السينما العربية الرديئة؛ فكان ينبغي أن يظهر في كتب تلاميذه، أو تلاميذ تلاميذه، ممن عهدهم بوفاته ليس بعيداً. لكن العجيب أنك لا تجد في كتب العروض والقوافي في القرون الرابع والخامس والسادس والسابع ذكراً لهذا الاستدراك. وأمامك كتب أبي يعلى التنوخي وابن جني والنهشلي حتى حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) في «منهاج البلغاء وسراج الأدباء». فإذا لا بد أن هذه الأسطورة ظهرت بعد ذلك، ولم يأت لها المحقق / المؤرخ.



تذييلان

أولاً: بعد كتابة هذا البحث، وجدت صديقي العالم الجليل الدكتور محمد عبد المجيد الطويل، قد سبق في الحديث عن أسطورة استدراك الأخفش بحرًا على الخليل بن أحمد الفراهيدي. انظر بحثه «أسطورة تدارك الأخفش للبحر المتدارك» مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد ٢٢ (ديسمبر ١٩٩٧م) ص ص ٥-١٦ .

ثانيًا: للصيديق الدكتور سامي سليمان أحمد بحث قيم في مجلة (فصول) العدد ٦٧ صيف وخريف ٢٠٠٥م، عنوانه: «التوفيقية ومشروع دراسة تاريخ الأدب العربي عند شوقي ضيف» ص ٣٥٢-٣٨٠ .

وهو في غرضه من البحث يختلف عن غرضنا هنا، غير أنه يلتقي، دون قصد، معنا في الفكرة. وإليك بعض ما توصل إليه:

(٣٥٨): يتحدث عن استخدام ضيف لعنصر الجنس في تفسير بعض الظواهر البارزة في شعر العصر العباسي الأول؛ إذ ردّ كثيرًا من مظاهر (الخلاعة) و(المجون) والمبالغة في (التحلل الخلقي) إلى الجنس الفارسي.

(٣٦١): يرى أن ضيفًا يقبل كثيرًا من مبالغات شعراء المدح التي يخلعونها على ممدوحهم، في ذلك الوقت الذي يرفض فيه المبالغات التي تبدو في كثير من الأشعار الشعبية، فيصفها بصفات من قبيل (المزاعم) و(التمادي في الغلو والبهتان والإثم) و(الغلو المقيت) وغيرها من الصفات!!

(٣٦٨): يرى أن قصيدة المدح عند ضيف قصيدتان، الأولى ما نجده في مدائح أبي تمام والمنتبي، والثانية ما نجده في مدائح مهيار الديلمي وغيره للخلفاء والوزراء والحكام في المناسبات. ففي الضرب الأول تقرأ (حقائق واقعة)؛ أما في الضرب الثاني فلا تقرأ إلا ملقًا وتزلفًا ورياء!!



اللسانيون التراجمة
يقولون ما لا يفعلون

اللسانيون الترجمة يقولون ما لا يفعلون

(١)

حفل ملتقى النص (٣) بأبحاث ومقالات قيمة دارت حول الترجمة من زوايا عدة: النظرية والتطبيق، الترجمة واختلاف الثقافات، علاقة الترجمة بالإبداع، ترجمة الكتب المقدسة، ترجمة الشعر، الترجمة الوسطية، المترجم مبدعاً، تاريخ الترجمة في العالم، علاقة الترجمة بإثراء قواعد العربية... إلخ.

ورغم تقاطع بعض القراءات مع بعض فقد كان كل بحث متميزاً وإن لم يسلم من جوانب قصور. على أن معظم الأبحاث اكتنفها عيوب (عربية معتادة، ترجع إلى أصل واحد مفاده أن اللسانيين الترجمة يقولون ما لا يفعلون. فهم يتحدثون في هذا الملتقى وقبله عن:

١- انضباط العنوان ومطابقته للمحتوى .

٢- ضرورة الإفادة من الإنجازات السابقة في مجال الترجمة والبناء عليها توفيراً للجهود.

٣- تمكن المترجم من اللغتين: المصدر والهدف حتى يكون فيهما سواء، أو في اللغة القومية على الأقل .

٤- انضباط لغة البحث، فلا بد أن تكون مفهومة؛ لخلوها من التعقيد والترهل . وسيرى القارئ الكريم أن حظوظ المقالات من الالتزام بالأقوال متفاوت، وأن أصحابها يقولون ما لا يفعلون؛ إلا من رحم ربك. وسنبداً بأعناوين أوضعنا (بين قوسين) ما يتم به المعنى من عندنا:

مشكلات الترجمة في المصطلح العربي اللساني (من خلال كتابين مترجمين).

ترجمة الأدب (الروسي) وإشكالية اللغة الوسيطة.
رُهاب الترجمة صراع ثقافي (من خلال الإمتاع والمؤانسة).
النص الملحمي مترجماً (الفردوس المفقود نموذجاً).
الشعر العربي الحديث مترجماً إلى الإنجليزية (أدونيس نموذجاً).
الترجمة المسرحية واقمها وآفاقها (من خلال مسرحيتين عربيتين).
الثقافات عبر الترجمة: القصة القصيرة (في السعودية) نموذجاً .
ثقافة النص المترجم (في ترجمات الكتاب المقدس والقرآن الكريم).
من فضايا ترجمة النص الإبداعي (من العربية إلى الأردية).
قابلية الثقافات للترجمة (عرض ونقد).
من المكتوب إلى المرئي (بين رواية الحرافيش وفيلم الجوع).
رؤية لواقع الترجمة في مجال تاريخ الجزيرة العربية (جهود دارة الملك
عبدالعزیز).

(٢)

بعد ذلك نجد كُتّابَ المتنبي لا يبنون على إنجازات سابقة متوفرة بين
أيديهم. بل يرغبون عنها. ويذهبون ناقلين من أصلها الإنجليزي، كما حدث مع
أعمال نيدا ونومارك وباسل حاتم. وآخرهم يستحق وقفة، فهو عربي وعمله
مكتوب بالإنجليزية أصلاً. أعني كتابه «الخطاب والمترجم». والرجل يشرف
على برامج الترجمة ويدرسها في جامعة هاربوت البريطانية. ترجم كتابه إلى
العربية عمر فايز عطاري بتكليف من جامعة الملك سعود بالرياض عام
١٩٩٧م. وأظن أن ست سنوات كافية لتعرف الترجمة وشيوعها خصوصاً أن
الذين رجعوا إلى الأصل الإنجليزي جميعهم يعمل في الجامعات السعودية.

فليس للأمر تفسير في نظري إلا محبة التعامل، ورؤية العناوين مطبوعة بحروف لاتينية. وقد يهون الأمر لو لم تحدث أخطاء في كتابة البيانات أيضاً!

بإمكان القارئ الرجوع إلى صفحات ٢٠٩، ٣١١، ٤٠٧، ٤٢٦، ٥٠٥، ٦٥٦، ٦٧٧، ٧١٨، ٧١٩.

(٣)

ثم نأتي لننظر في بعض المقالات معلقين على ما جاء فيها.

ترجمة المصطلحات الأدبية وتعريفها - حسن غزالة .

الكاتب مشهور في مجال الكتابة عن الترجمة، لكنه في مقاله هنا - على قيمته - يشبه اللاعب المشهور المتهين بالتمرين اعتماداً على أن الشهرة تغني. ثم تأتي المبالغة لتثبت أن التمرين المستمر لا غنى عنه، فلولا ما حافظ المشهور على مستواه.

أقصد أن الرجل كان خطيباً واعظاً لا باحثاً، فال فقرات المختلفة تكرر محتوى واحداً، ثم إن الألفاظ الحماسية والجمال العاطفية هي السمة الأسلوبية في هذه الفقرات، والرجل، إذا جازيناه في بعض تعبيراته، (يزعل) إذا توصل الكتاب إلى مصطلح عربي البنية لم يستشيروه في صياغته! ولقلة التمرين نراه يلقي بمعلومات خاطئة. وإليك أمثلة:

٢٥ف١ الماركسية مرتبطة بفكر المفكر اليهودي الروسي ماركس.

ولا أدري كيف غاب عنه أنه ألماني.

٢٧ف٢، ٢٨ف١ ذهب إلى أنه استسهل المصطلح الأجنبي وهجر العربي -
كونه أسلس في النطق مثل رومانسية ورومانطيقية، ثم قال إنها: «ادعاءات لا أساس لها لغوياً ولا منطقياً ولا لفظياً ولا مدلولياً» ثم ذكر مرتين أن العربية لغة كتاب الله ولغة نبيه، و«لن تكون هناك لغة لا أحلى ولا أفضل ولا أجمل ولا أسلس منها». ولاحظ الإسهاب اللغوي، ولا نقول الإسهاب غير المقيد.

٢٨ف٢ «أما تيمة فلا أرى مبرراً ولا طعماً ولا فكاها».

أقول: هذه لغة غوّار الطوشة ورفيق دربه أبو عتر!

ص ص ٣٠-٣١ يرى في بعض المصطلحات العربية رطانة، ومنها ظاهراتية التي يفضل أن تحل ظاهرية محلها. ونسي أن الأخيرة دالة على اتجاه فقهي في التراث العربي، وأن التي بصيغة الجمع تعني شيئاً آخر لا علاقة له بصاحبها.

٣٦ف٢: هل يرفض الفرنسي الفرنسية (...) أو الإسباني الأسبنة، بالطبع لا، فهم على خطأ إذا؟ أم أن الخواجة غير شكل! أهؤلاء الغيورون والحريصون على لغتهم، أم أولئك أبناء جلدتنا الذين لا غيرة عندهم ولا حرص على لغتهم العربية؟ الإجابة بدهية.

أقول: لا أدري إن كان الكاتب يعد نفسه من الغير على اللغة العربية أم لا؟ فإذا كان كذلك فإن لغته/ فعله تنفي قوله.

٤٠-٢ إلا ما اضطررنا عليه. صوابه: إليه.

٤١-٣ محمود فهمي حجازي: الأسس اللغوية لعلم المصطلح، القاهرة: مكتبة النهضة. صوابه: دار غريب.

ص ٤٢ (في المرجع): جيه شيتكوفيتش: اللغة العربية الفصحى الحديثة (باللغة الإنجليزية) مطبعة شيكاغو: شيكاغو: الولايات المتحدة.

قلت: الكتاب صادر عن جامعة شيكاغو ١٩٧١م. وترجمه د. محمد حسن عبدالعزيز بالعنوان نفسه، في القاهرة ١٩٨٥م. وصحة اسم المؤلف الأوكراني الأمريكي (ياروسلاف ستكفيتش). ولكتاب هذه السطور ملاحظات على نكتاب والترجمة معاً، منشور في النجلة العربية للعلوم الإنسانية - جامعة تكويت، خريف ١٩٨٧م فراجعها إن أحببت.

مشكلات الترجمة في المصطلح العربي اللساني - مازن الوعر. (مركزه الله)

الكاتب من تلاميذ تشومسكي. برز في النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين، ولا نجد له في التسعينيات شيئاً ذا قيمة، إذا استثنينا بحثه عن جملة الشرط عند النحاة والأصوليين العرب، الصادر عام ١٩٩٩م.

في هذا المقال نجد الكاتب يلجأ للتكرار، ففي الصفحتين الأوليين يلخص البحث، ثم يكرر الملخص في التمهيدي، ثم يكون البحث الذي هو نقد كتابين مترجمين! وقبل أن نلقي بملاحظات بسيطة نقول: إنه أصر على تسمية اللساني الإنجليزي جون ليونزوم (جان) (ص ٤٥، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧) وهذا نفرّد من الباحث، فقد ترجمت أربعة كتب وكلها عليها (جون) = Jhon.

غمز الوعر من قناة المترجم محمد زياد كبة، الذي نقل كتاب تشومسكي إلى العربية ونشره النادي الأدبي في الرياض ١٩٨٧م. كما نعى على مصطفى صالح أن بين ترجمته كتاب «اللسان والمجتمع» ونشر الكتاب بلفته الأصلية ١٨ عاماً. ونقول: ما قولك في أن الكتاب المنسوب لدو سويسر (صدر ١٩١٦م) لم ينقل إلى الإنجليزية إلا عام ١٩٥٩م؟ إلام تعزو ذلك؟ أتختلف الإنجليزية عن ركب اللسانيات البنيوية؟ أم لشعورهم بأنهم غير محتاجين إليها؟ ثم أنت نفسك عرضت كتاب «تشومسكي» لجون ليونزوم في «اللسان العربي» ص ١٨٦-١٥٧ العدد ٣١ ديسمبر ١٩٨٩م، في حين أن عارضاً آخر سبقك إلى ذلك بثلاث سنوات، بعنوان: «النظرية التوليدية ومناهج البحث عند تشومسكي» مجلة (الفكر العربي المعاصر) العدد ٤٠ (١٩٨٦م)! وأنت في تقديمك عرضت طبعة ١٩٧٢م المتفحة، الصادرة في سلسلة (Fontan's Modern Masters Series).

نعم كان الكتاب مترجماً على يد الدكتور حلمي خليل، بعنوان «نظرية تشومسكي اللغوية» الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية ١٩٨٥م. فلا تنه عن خلق وتأتي مثله.

ولم ينقل له به «الانحياز نظماً»
كتاب واحد
لا ينز

وصف الكاتب المترجم محمد زياد كبة بعدم التخصص، وعدم اتباع خطة موحدة في ترجمة المصطلحات، وأنه لم يضع المفاهيم اللسانية الغربية بمصطلحات عربية تراثية لها نفس المفهوم.

ونقول: بل إنه متخصص وله من الترجمات - غير ما ذكر الكاتب:

١ - مدارس اللسانيات، التسابق والتطور، تأليف جفري سامسون، الرياض: جامعة الملك سعود ١٩٩٧ م.

٢ - اللغة وسلوك الإنسان، تأليف ديريك بيكرتون، الرياض: جامعة الملك سعود ٢٠٠١ م.

أما ترجمة المصطلح الواحد بأكثر من لفظ فلا ننفه عن الدكتور كبة، لكنه ليس بدءاً في ذلك، فذلك مرض ثقافي عربي عام. وأما أنه لم يستخدم مصطلحات تراثية عربية فحسباً فعل، ذلك أن التطابق بين المفهومين: الغربي والعربي غير لازم. بل قد يكون مضللاً. فهل نقول إن: Surface Structur يعادل (الظاهر) وأن (المقدّر) يعادل deep structure أم أن الأول يعادل: البنية السطحية والثاني يعادل البنية العميقة؟

ثم ما عيب (قواعد اختيارية) و(قواعد إجبارية) حتى نستبدل بهما: القواعد الجوازية والقواعد الوجوبية؟

وفي الختام يذكر - دون مناسبة - أنه صاحب نموذج عربي لساني عصري يستمد مكوناته النظرية من النظرية اللسانية العربية القديمة ومن التقنيات الحديثة للنظريات الغربية (ذكر النموذج). ونحن نستحلفه بالله وبكل مقدس أن يقول بينه وبين نفسه: أي النموذجين أدق وأكثر اختصاراً، القديم أم الجديد؟

(٥)

معايير مقدمة حول الترجمة في النقد القديم - محمود إسماعيل عمار.

البحث واف بموضوعه. سليم في لغته عمومًا، جيد في عرضه. لكن ذلك لا يعني خلوه من هتات هينة.

٥-٧١ وجدنا من الصحابة الفارسي والرومي والحبيشي والنوبي والسوداني.

نقول: عرفنا سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلالا الحبشي، فمن الآخرين؟

ورد في ص ٧٦، ٧٨ يوحنا بن موسىه. وصوابه: ماسويه.

في ص ٨٦، ٩٧ ابن وهبلي، صوابه: وهبلي بياء بن.

مأكل كان يحمل ثنتين أو ثلاث.

٩٢ ف أسقطت كلمة من نص الجاحظ... وسقط موضع التعجب (منه).

١٠٨ ف٤ سقط من نص الإمتاع والمؤانسة ١/١٢٣ بعد كلمة الصورة:

الأيسية والليسية.

١١٥ ف٤ ويحملها طلقات شعورية. صوابه: طاقات.

ترجمة الإبداع وأشكاله اللغة الوسيطة - مرتضي غازي عمروف.

ورد في ٢١٢ الفضل بن خاتم وصوابه: حاتم (بالمهمله). والألماني فيلغيلم

فون غمبولت. وصوابه: فيلهلم فون همبولت.

وإذا تفاضينا عن المعجمة في بعض فقرات البحث، فإننا لا نستطيع

التفاضي عن الخطأ في الهوامش والمراجع.

٢٢٨ هـ ٢٠١ الترجمة إلى العربية قضايا وآراء، د. بشر العيوي. صوابه:

عيسوي.

٢٣٠ - ٢ خلوصي، صفاء، بغداد، الهيئة العامة للكتاب، صوابه: القاهرة:

الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٣٠ - ٣ فن الترجمة في الأدب العربي، حسن محمود عبد الغني...

صوابه: محمد عبد الغني حسن.

دُهاب الترجمة صواعق ثقافي - ميجان الرويلي.

٢٦٠ ف والكل يذكر أطروحة إدوارد ساير حيث يشير في عام ١٩٥٦ م إلى...
أقول: أتى له ذلك وقد مات في ١٩٣٩ م؟ وأرى أن سبب الخطأ عائد إلى
اعتماد الرويلي كتابه «الثقافة، اللغة، والشخصية» الصادرة طبعته الثانية عام
١٩٥٦ م بعد أن شيع موتاً، فتأمل. وبالمناسبة ورد في ص ٢٧٧ هـ أن الكتاب
طبع عام ١٠٥٦، أي قبل اختراع جوتنبرج للطباعة.

٢٦١-١٠ أكد يوري لوتمان في عام لاحقاً. صوابه: لاحق.

٢٦٢-١٥ التي يسوقها هؤلاء المنظرون!!

٢٦٣-٤،٣ أما عندنا... يفصح عن نفسه.

٢٦٦-٦ من أن يكون في بيانه في نفس الترجمة في... صوابه حذف (في) الأولى.

٢٧٢ - ١٤ ما خص به قون قوم. صوابه: قوم دون قوم.

١٧٨ - هـ ورد اسم العلم جاك هكذا Jscopon وصوابه Jacques.

النص الملاحى مترجماً - عزت خطاب.

٣٤٠ ف ثم إن عناني يشير إشارة عابرة إلى وجود ترجمات عربية لأهم
الملاحم الإغريقية والرومانية أي الإلياذة، الأوديسة، الإنياذة، مسخ الكائنات
وفن الهوى...

قلت: الأخيرتان ليستا ملحمتين بحال.

٣٤٠-٤ من أسفل: تسعة وثلاثين صفحة. صوابه: تسع.

٣٥٦- وهي ملحمة دينية والتي نشرت... صوابه بحذف (والتي).

تمكين الفعل العربي عبر الترجمة - لمياء باعشن وصباح صافي.

دراسة نقابنية مقارنة بين العربية والإنجليزية، ركزت على صيغة المصدر
نصتعي في العربية، وميزت بينها وبين أشكال تشبهها، وبينت دلالات المصدر
المختلفة. وكيف ترجمت أشكال وصيغ من الإنجليزية إلى العربية بهذه الصيغة.
ولكن عنوان البحث - كما لاحظ الدكتور الشبي - غير واضح البتة. وفوق ذلك

ذهبت الباحثان إلى جدة بعض الالفاظ الواردة على هذه الصيغة، في حين أنها واردة في نراثنا القديم. ونحيلهما على كتابنا «العربية الفصحى المعاصرة وأصولها التراثية» القاهرة: دار غريب ٢٠٠٢م، ص ص ٩٧-١٠٣ .

دراسة نظريات الترجمة من القديم إلى الجديد - عبد الوهاب الحكيم .

بحث قيسم على ما فيه من تكرار: والتكرار هين إذا نظرنا في الأخطاء اللغوية التي لم تغادر الفاعل والمفعول والتمييز. حتى جاوزت العشرين. ولا يظن القارئ الكريم أننا سنقف عندها؛ لأن هذا لن يحدث وسنكتفي بالأخطاء الواردة في الأعلام :

ففي ص ٦٢٠ يتحول ابن ناعمة الحمصي إلى ابن نعيمة، وفي ص ٦٢٣ يتحول الألماني فرديش شلاير ماخر إلى سكيير ماخر. وفي ص ٦٢٩ يصبح بنيامين لي وورف: ورت. ثم نجد مؤلفي «معنى المعنى» أوجدن وريشاردز (نعم بزاي نهائية) يصبحان أوجدين وريشارد (ص ٦٣٠).

بعد ذلك نرى بكتال واير فنج متحولين إلى بكتهول وأروفنج .

أما ص ٦٣٨ فتتحدى الباحث نفسه أن يكون راضياً عنها، إذ نعتقد أن أسطرًا سقطت فاستغلق علينا فهم ما بها. والمعجب أنها تدور حول عدم الدقة في اسم الكاتب (!) وها نحن نورد بعض ما جاء فيها وفي ص ٦٤٠ مقابلة بالصحيح:

الصواب

ما جاء عند الباحث

روبرت لويس ستيفنسون

روبر وليس

آرثر كونان دويل

اثر كونان دويل

إميل برونتي

إميل برونتي

ج. هـ. ويلز

ج. هـ. ويلز

د. هـ. لورنس

د. هـ. موراتس

وفي الإحالات أخطاء بسيطة تظهر بسهولة للقارئ باستثناء ما جاء في
(٦٦٩-١) محمد المهني العبادي، إذ المقصود محمد المنجي الصيادي .

وفي ص ٦٣٠ أشار إلى الجدول التالي، ولا وجود له .

وفي ص ٦٣٤ «نجد الدكتور عبد السلام المسدي يضع في نهاية كتابه الأسلوبية
والأسلوب، نحواً بديلاً لسانياً في نقد الأدب، وكشافاً للمصطلحات» .

والواقع أن ما تحته خط داخل ضمن العنوان محرفاً صوابه: «الأسلوبية والأسلوب
نحو بديل ألسني في نقد الأدب». ولا شك أن المؤلف وضع كشافاً كما قال.

٦٣٩ ف ١ «وترجمت كل أعمال شكسبير في مجلة المسرح التي مازالت
تصدر حتى اليوم» .

ونقول: إن المجلة المشار إليها غير التي توالي الصدور حتى اليوم.

٦٤٢ ف ١ ترجمة المرحوم محمد هلال لكتاب جان بول سارتر الأدب...
صوابه: محمد غنيمي هلال... ما هو الأدب.

- ترجمات قصص إيرنست همنجواي وكولن ولسن مثل: المعقول
واللامعقول في الأدب الحديث والتممي وما بعد التتميم كانت مقبولة .

- أقول: هذه العناوين ليست قصصاً بأي حال، بل هي كتب فكرية نقدية
تتخذ من الأعمال الأدبية مطية للتحليل . بل إن العناوين خطأ أيضاً وصحتها
على التوالي: المعقول واللامعقول في الأدب الأوربي الحديث، اللاتممي، ما
بعد اللاتممي . أما الروايات/ القصص التي نشرت في العربية لكولن ولسون/
ولسن فهي: ضياع في سوهو - الشك - الحالم - القفص الزجاجي - إله
المنامة - الاستحواذ - العناكب. ^{من} أغلبها منشورات دار الآداب ببيروت .

- في ص ٦٤٣ جدول ذو نهريين . سقط من النهر الأول العدد ١٩٨٤، كما
سقط من الثاني العدد ١٩٦٨ .

٦٤٤ ف ٢ يذكر أن الكتب المترجمة في سلسلة عالم المعرفة ٢٢ (!) ولا تعليق .

وفي ص ٦٤٥ ينقل عن غيره أن المملكة المغربية ترجمت كتابين فقط في الفترة ١٩٧٠ - ١٩٨٠ م (!) .

٦٤٤ ف ٤ موقع التعريب من التثقيف والأسلحة! وصوابه: موقع التعريب ^٨ والترجمة من التثقيف والأسلمة (بالميم) .

ونختم بضرورة حذف كلمة (عشر) من ص ٦٤١ في العنوان: «... وحتى العقد الثامن عشر من القرن العشرين».

دراسات اللغة ودراسات الترجمة - محمد بن عبد الله العبد اللطيف .

للكاتب في اسمه رسمان: الذي ورد مصاحباً للعنوان، ثم الذي كتب في رءوس الصفحات (آل عبد اللطيف). ربما كان هذا مؤذناً باجتهاده الذي خالف فيه كل الكتاب عندما أورد أعلاماً أوروبية فيها القاف والصاد.

لديه ر. لبق هاريس - صاندرز بيرس - دويوقراند - قريغوري - ولفغانق - خوان سافر - يورق هانز قدامر. تعارف زملاؤه اللسانيون الترجمة على إيراد هذه الأسماء إما بالغين أو بالميم، وهي في المنشأ بالميم السامية .

ولكن هذا الاجتهاد الذي أخطأ فيه لا يحرمه من الإفادة في عرض قضية العلاقة بين تطور الدراسات اللسانية وتأثيرها في علم الترجمة أو إن شئت في نظريات الترجمة، منذ القرن التاسع عشر حتى دريدا. كما لا يحرمه أنه أورد اسم الإناسي البولندي برونسلاف مالبينوفسكي هكذا: «برانسلاف مالبينوسكي»، وأورد التداولية بالشكل الذي يفضض حسن غزالة: البرجماتيكية والبرجماتيكية .

ويحسب له أن -ضمن قلة قليلة - أورد اسم اللساني الدغركي على وجه صحيح كما ينطق: لوي يلمسليف؛ في حين إن إخوتنا في العروبة يكتبونه: لويس هيلمسليف .

على أنه رغب - كغيره - عن استخدام الأعمال المترجمة. فنجدته في قائمة المراجع يذكر الأصول الأجنبية التي ذكرناها في بداية كلامنا. إضافة إلى كتاب تشومسكي: المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها (١٩٨٦م). وهذا الكتاب ترجمته د. محمد فتوح ونشرته دار الفكر العربي (١٩٩٣م).

ذكرتني كتابة الأعلام الأجنبية بحالة فريدة من نوعها. لمن أر من نه عليها غير د. حسن البنا عز الدين. فسميد الغايي ترجم كتاباً عنوانه «السيما» والتأويل، ولا يخفى مقال في علامات أو جذور أو أخواتهما من الإشارة إليه، في حين أن اسمه المؤلف. بل لقيه خطأ صريح. كيف جاء الغلاف أنه روبرت شولتز. والأخيرة أصلها سكولز. سين وكاف له واو مد تليها لام وزاي ساكتان. نعم هي Schoies تماماً كلاعب نادي مانشستر يونايتد الأصهب الذي يحمل رقم ١٦. وأحياناً بلبس رقم ١٨. وبإمكان القراء الرجوع إلى موقع النادي على الإنترنت. وسماع المعنيين يتفقون الاسم الذي يحمل الهجاء نفسه كما قلنا.

وأخيراً دعونا أن نحمد الله رب العالمين

تلخيص

(*) نشر في مجلة (علامات في النقد) العدد ٥٣ رجب ١٤٢٥هـ = سبتمبر ٢٠٠٤م. وقد حذفنا منه أشياء كثيرة خاصة ما يتعلق بأخطاء النحو والصرف والطباعة. وأبقينا ما نرى أنه يصدق على أبحاث المتلقي المنقود وعلى غيرها. إذ إن لنا نحن الباحثين العرب - خصائص بنوية لا تتغير.

(*) اعترض في آخر مايو ٢٠١٣ مع اعتراف المهرب ألكس فيرجسون المتدرب

المستشرقون وخبز الشعير المذموم

المستشرقون وخبر الشعير المذموم

طالعت في العدد العاشر من مجلة جذور مقالة مجبل لازم المالكي^(١) (تحقيق التراث العربي - نشأته ومناهجه) ولم أجد فيه شيئاً إلا أقل القليل.. ولفت نظري في محتواها فكرة تتكرر عند (المحققين) العرب، سواء في كتبهم ومقالاتهم النظرية أو في تحقيقاتهم لكتب سبق أن أخرجها قبلهم بعض المستشرقين. تقوم الفكرة على ذم هؤلاء المستشرقين الذين تعلموا من أعمالهم طرق التحقيق الحديثة. ويصدق عليهم القول الشائع أنهم «مثل الشعير يؤكل ويؤذم» وسنقصر حديثنا على بعض المذمومين الألمان الذين أخرجوا قسماً من كنوزنا الأدبية إلى النور.

بعضهم اتخذ لنفسه اسماً عربياً، من حبه لهذا التراث العربي. فهناك «فلهم ألفرت» الذي أخرج دواوين الشعراء الستة الجاهليين، والأصمعيات، ودبوان العجاج وغيرها. وقد سَمَّى نفسه (وليم بن الورد البروسي) وهناك «أوجست مولر» ناشر طبقات ابن أبي أصيبعة، سَمَّى نفسه: امرئ القيس بن الطحان، و«فريتس كرنكو» يسمي نفسه الحاج سالم الكرنكوي. وبعضهم احتفظ باسمه الأصلي مثل: «هلموت ريتز» الذي أخرج (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري) و(أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني.

فأما وليم بن الورد فقد هاجمه عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر في مقدمة تحقيقيهما مجموعة (المفضليات) للمفضل الضبي. ومجموعة (الأصمعيات) للأصمعي، كان الهجوم قاسياً ومع ذلك اعتمدا على نشرته

(١) الأستاذ المشارك في قسم المكتبات، بكلية الآداب، جامعة صنعاء

وفلا غير حتى سمع بني دته ويلا هروف حرب حضيرة لاحتجنا في
 حصار ساحة مضوية عهد سرسها. همت سلتط منها شيء لا نستطيعها
 وهي عاتة. ومقصود. حرب عدلية تشية وقد مريت عقود وله يرجعا
 بي هذه ساحة سرعومة. بي أن تشلا من حياة القدية إلى سار الآخرة.

كملت ستد عد سلاه هرون في تحقيقه كتاب (الاشفاق) لابن دريد.
 من سيرة المستند. ومع قلت هجمه في مقدمة نشره

وأد هسوت ريثر فقد هجمه شيخ عربية أبو فهر محمود محمد شاكر.
 عند أعد تحقيق كتاب أسرار بلاغة العبد القاهر الجرجاني. اعتمد شاكر
 نسخ ثلاث نسخة^١ التي اعتمد ريثر^(١) ومع ذلك وصف طريقته في
 تحقيقها. طريقة ضعف محققين محدثين في زمانه. بالاستكثار مع ذكر
 مرجع كثيرة لأبوت شعر بني ستهده بها عند القاهر. في كتب ألفها
 بلاعيون بين جدو من بعده. لأنه لم يأخذوا هذه الشواهد إلا من كتاب
 عند قاهر^٢. وهذه هي الطريقة لنفسه التي تخلفها أخوه الأكبر أحمد
 ونريكه عند سلاه هرون في تخريج شعار النضليات والأصمعيات فهل
 هم من ضعف محققين^٣ وإذا سكت بضعف طريقة ريثر حق لنا أن نسأل
 عن اختلاف جوهرى بين النصبتين في المتن. وقد قابلت بينهما فقرة فقرة.
 فكانت مبرح لاختلاف خمسة لا غير. وهو أمر هين في كتاب بحجم
 لأسرار. ووجدنا شيخ العربية في تخريج الشعر يكسفي بقوله: هو في
 ديوانه^٤ فكيف يصنع القارئ إذا أراد المقابلة بين روايات الشعر المختلفة؟

١- نسخة خطية. تحقيق أحمد محمد شاكر وقد سلاه محمد هرون. نسخة لأوس ١٩٥٢.

٢- نسخة خطية عام ١٩٩٣. وكذلك عن در معرف القاهرة. ص ١٦. وبقر مقدمة لأصمعيات.

لأوس عام ١٩٥٥. وثبت عام ١٩٩١. وكذلك عن دار تعارف بغداد ص ٦.

٣- عن أسرار بلاغة عند قاهر جرجاني. تحقيق هسوت ريثر. ستبيلون وزارة معارف ١٩٥٥م.

و تحقيق محمود محمد شاكر. نسخة نسبي بالقاهرة وحدة ١٩٩٦م. مقدمة بتحقيق. ص ٨.

٤- وهذا ص ١٠٥ من نص في تحقيقه (الاشفاق) للقاهر. القاهرة مكتبة حادي ١٩٩٥.

وأي الطريقتين أسرع ليصل إلى بغيته؟ أرأيت ياعزيزي القارئ كيف يؤكل خبز الشعير ويذم؟

ونتقل إلى موضوع متعلق بكبار المحققين العرب، فهؤلاء - على فضلهم الذي لا يُحصى، وعلمهم الذي لا يُنكر - ليسوا في كل حالة مبرأين من الهوى البشري يبعدهم أحياناً عن الجادة، وليسوا منزهين عن حالات عناد تطوُّح بهم بعيداً عما ينبغي للعالم من الإذعان للحق الأبلج .

فمن ذلك أن محمود محمد شاكر أخرج كتاب محمد بن سلام الجمحي «طبقات الشعراء» عام ١٩٥٢م وغير عنوانه إلى «طبقات فحول الشعراء»^(١) برغم أن الطبقات السابقة ليس فيها كلمة (فحول)، وكل المخطوطات نخلت منها أيضاً. وظل يزوج بهذه الكلمة في مقدمة كل طبعة، ولم يسلم المشرق يوسف هل، الذي أخرج الكتاب في ظروف صعبة جداً أثناء الحرب العالمية الأولى، من وصفه بالمسكين. وقد انتقد كثيرون تغيير عنوان الكتاب، وانتقدوا نقله نصوصاً كثيرة من الموشح للمرزباني والأغاني للأصفهاني ووضعها في متن الكتاب. كان بين المنتقدين: السيد أحمد صقر، ومصطفى مندور، ومير سلطان^(٢)، وعلي جواد الطاهر^(٣).

وفي كتاب وضعه شاكر يرد على منتقديه، ويخص الثلاثة الآخرين بوابل من حممه يقول كلاماً بليغاً يوضح رأيه في أعمال المشرقين عامة: (لو كان عندنا صاحب مطبعة قد تعلم وشدا من العلوم شيئاً يسيراً، فأخذ نسخاً مخطوطة من كتاب، وقابل بعضها ببعض، لاستطاع أن يخرج لنا الكتاب على

(١) هذا العنوان في الطبعة الأولى ١٩٥٢م الصادرة عن دار المعارف، وفي الطبعة الثانية ١٩٧٤ الصادرة عن مكتبة الحامدي ومطبعة المدني

(٢) مير سلطان: ابن سلام وطبقات الشعراء، الإسكندرية: منشأة المعارف ١٩٧٨م

(٣) علي جواد الطاهر: محمد بن سلام وكتابه طبقات الشعراء. عمان: دار الفكر ١٩٩٥، ص ١٠٩ - ١١٥
وص ١٣٠ على سبيل المثال والكتاب تجمع لهذه القضية، ودراسة لمكانة ابن سلام وأثره في النقد القديم والحديث

أنه صورة تطابق أصول (المنهج العلمي) وفصول (علم التحقيق) لا، بل أزيد، فإن صاحب المطبعة مستطيع أن يتفوق عليهم في إخراج الكتاب على صورة أدق وأصح وأتقن وأسلم من كل ما فعله المستشرقون بلا استثناء أحد^(١١). وهذه النزعة المستخفة بالغير قد تجعل المحقق الجليل يظن أنه قد أتى بما لم نستطعه الأوائل^(١٢). فبدل بما توصل إليه من كشف. فقد أطال وأعاد في نشرته (دلائل الإعجاز) أن عبد القاهر ظل يهاجم القائلين بأن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة قال: (وفنتش ونقت. فلم أظفر بجواب أطمئن إليه، وتناسيت الأمر كله إلا قليلاً، نحواً من ثلاثين سنة)^(١٣).

وخلاصة الأمر: أن كتاب (المغنى في أبواب العدل والتوحيد) للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني (ت ٤١٥ هـ) عندما طُبع جزؤه السادس عشر، واطلع عليه، أيقن أن المقصود بالهجوم مؤلف المغني، وأن الأقوال المذكورة في الدلائل موجودة بنصها ولفظها في المغني^(١٤).

وما ذكره حقيقة توصل إليها العلامة شوقي ضيف قبله بنسعة عشر عاماً في كتابه (البلاغة تطور وتاريخ) ولم يُدل بعمله واكتشافه، بل ذكر ذلك بتواضع وهذوء. ويبين أن عبد القاهر - رغم هجومه على عبد الجبار دون ذكر اسمه - قد أفاد منه، حتى ليعد مفسراً لنظريته التي توسع في تفسيرها وشرحها في الدلائل^(١٥). فإن لم يكن قرأ هذا الكتاب، فهو استصغار لغيره من المؤلفين

^(١١) محمود محمد شاكر برنامج طبقات فحول الضمراء، القاهرة: مطبعة المدني ١٩٨٠، ص ١١٦.

^(١٢) طيفاً هو عالم أي عالمه. وفي أبحاث دارسين كثيرين دين له، وكتاب هذه السطور لم ينبع له أن يلتقي به، لكنه مع كل انتقاداته هنا معجب بكتابات أشد الإعجاب.

^(١٣) مقدمة تحقيقه دلائل الإعجاز، صفحتا ١٥، ج.

^(١٤) مقدمة تحقيقه الدلائل، صفحة ٤.

^(١٥) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، القاهرة (ط ١) دار المعارف ١٩٦٥، ص ١١٤ - ١١٩.

الذين تناولوا ما تناول. فهل نقول: إنه قرأه وأفاد منه دون أن يذكره؟ هذا ما نستبعده.

ونتحول ثانية إلى المحقق عبد السلام محمد هارون الذي أخرج لنا من مكتبة الجاحظ: الحيوان، والبيان والتبيين، والعثمانية، وكتاب البرصان والمرجان^(١) ومجموعة كبيرة من رسائل الجاحظ في حلة قشبية. وإلى جوار ذلك أخرج لنا كتاب سيويه، ومقاييس اللغة لابن فارس. ومجالس العلماء للزجاجي، والمصون لأبي أحمد العسكري. وله كتاب في تحقيق النصوص ونشرها^(٢) يدرس في الجامعات. وله نقداً لكتب كثيرة نشرها غيره. ويكفيه نبلاً أن تعد معاييه. وسبق أن أوردنا كيف استفاد من خبز الشعر ثم ذمه. ونورد هنا أموراً من مخالفاته لما ذكره هو في كتابه عن تحقيق النصوص. نكتفي منها بعملين اثنين:

أ- أخرج كتاب سيويه في أربعة أجزاء أرفدها بخامس وفقاً على الفهارس المتنوعة بحيث أحمل ذكر الفهارس، التي صنعها المرحوم أحمد راتب النفاخ^(٣) وقد ذكر عند نشرة الكتاب الطبقات السابقة عليها، وأنه أفاد منها، لكنه لم يذكر أعمار المخطوطات التي اعتمدها ولم يأت بصورة منها. وقد حدثت هنات في نشرته، رغم الجهد الجبار المبذول منه. ذلك أن بعض تعليقات الأخفش الأوسط والجرمي لم يفصلها عن متن الكتاب^(٤) وسيطرت عليه أسطورة الأبيات الخمسين التي عجز الجرمي عن نسبتها إلى قائلها، فأخذ يعلق في الحواشي: إن هذا البيت من الخمسين!! ونسي أنها وصلت في الجزء الثالث من تقسيمه إلى

(١) كتاب البرصان والمرجان، سبق أن حققه المرحوم محمد مرسى الخولي. القاهرة: دار الاعتصام ١٩٧٤م.
(٢) هناك: «فهارس سيويه ودراسة له» لـ محمد عبد الحالق عضيمة، القاهرة: السعادة ١٩٧٥. وهو يجهز ضعة الأميرية ١٩١٧م. ولم تكن نشرة هارون قد اكتملت. وفي رأيي أن باجتماعهما تنتج مغاليل الكتاب ومسانله، ولا تغني إحداهما عن الأخرى.

(٣) كتاب سيويه تحقيق عبد السلام هارون (ط٢) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ - ١٩٧٩ ج ٣ / ٦٣٦، ٦٣٧ على سبيل المثال.

٢٣٤ شاهداً فقط^(١). وفي (باب الإدغام) من الكتاب سقط منه مخرجاً اللام والنون في حين أنهما مذكوران في طبعة بولاق، التي حرص على إثبات أرقام صفحاتها في أطراف صفحات طبعتها^(٢)، وهما موجودان في الكتب التي نقلت مخارج الأصوات عن سيويه. وبالنسبة هناك قطعة من كتاب سيويه^(٣) في الجامع الكبير بصنعاء يمكن أن تعدل من متن الكتاب المنشور ولم يعرفها هارون، ولم يستفد منها سارقو طبعة هارون. ولا حول ولا قوة إلا بالله !

أخرج هارون عملاً يبدو صغيراً في نشرته، وهو «كتاب العصا» للأمير أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) يقع متنه ضمن الجزء الأول من (نوادير المخطوطات)^(٤) في سبع وعشرين صفحة فقط. أخرجه بناء على ثلاث نسخ مخطوطة: (١) نسخة ليدن . (٢) نسخة الأميروزيانا . (٣) نسخة دار الكتب التي تشبه المخطوطتين السابقتين، وكتبت بخط حديث في كراسة حديثة أكل الفأر بعض أطرافها^(٥) وذكر في صدر العنوان في الطبعة الثانية (ص ١٧٥) أنه عثر على مخطوط لكتاب العصا محفوظ بمكتبة خدابخش بنته، وأنه أجرى في هذه الطبعة الثانية مقابلة على هذا المخطوط، بعد أن تأكد له أن نشرته ما هي إلا مختصر متواضع لكتاب العصا.

والواقع أن الكلام الأخير هو الصواب، لكنه لمن يجز أي مقابلة. فالدكتور حسن عباس حين نشر (كتاب العصا) أشار إلى نشرة هارون، وذكر أنه اعتمد

(١) انظر في تفاصيل الأسطورة: رمضان عبد التواب: «بحوث ومقالات في اللغة»، القاهرة والرباط: مكتبة الخانجي ودار الرفاعي ١٩٨٢ - فصل «أسطورة الأبيات الخمسين في كتاب سيويه»، وانظر: خالد عبد الكريم جعنة: شواهد الشعر في كتاب سيويه ط ٢ الكويت ١٩٨٧م.

(٢) كتاب سيويه ج ٤ ٤٣٣ وقارن طبعة بولاق ٤٠٥/٢.

(٣) ابن جني: سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداي، دمشق: دار القلم ١٩٨٨، ج ١ / ٤٧، وابن الجزري: النشر في تقراءات العشر، تصحيح علي محمد الضباع، القاهرة: المكتبة التجارية، ج ١ / ٢٠.

(٤) أسامة بن منقذ: كتاب العصا، تحقيق: عبد السلام هارون، ضمن (نوادير المخطوطات) ط ٢، القاهرة: مصطفى الحلبي ١٩٧٢، ج ١ - ١٨١ - ٢١٥.

(٥) مقدمة هارون للتحقيق، ص ١٨٠. لم يأت بصورة لأي من المخطوطات الثلاث!

على ثمانى مخطوطات للكتاب. من بينها هذه المخطوطة. يجاوز متن الكتاب في طبعة حسن عباس ثلاثمائة صفحة فتأمل! ^(١)



تذييل

عرض العالم الجليل د. محمد عوني عبد الرؤوف في كتابه (جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠م لجهود بعض المستشرقين سواء في تحقيق أعمال من التراث العربي أو في ترجمة هذه الأعمال إلى لغات أوروبية، واجتهد في النماذج المقدمة أن يبين عرض طرائق التحقيق، ومقدار ما عانوه عند بحثهم عن المخطوطات وما بذلوه في سبيل الوصول إليها، والحصول على أكبر عدد من النسخ عن النص نفسه كي يقارنوا بعضها ببعض ويصلوا إلى إقامة النص، والعمل على نشره ووضع الفهارس المختلفة له ليسهل على القارئ الرجوع إلى الكتاب، ولتصبح الاستفادة منه كاملة. كما عرض لبعض الترجمات التي ينشرونها لمخطوطات عربية إلى لغاتهم المختلفة أو إلى اللاتينية. وحرص في أكثر النماذج أن يقدم ثبناً بالمراجع التي رجع إليها المحقق ليدرك القارئ قدر ما عاناه المحقق في تحقيقه للكتاب.

ونحن لسنا في صدد عرض الكتاب أو اختصاره؛ بل سنقتل منه بعض أعمال المستشرقين الألمان في التحقيق دون غيرها من الأعمال كالترجمة أو التأليف.

فيلهلم ألكفارت [وليم بن الورد البروس] (ت ١٩٠٩).

- العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين ١٨٧٠م.

- مجموع أشعار العرب (٣ مج) ١٩٠٣م.

(١) أسامة بن منقذ. كتاب المعاد، تحقيق حسن عباس. الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١. مقدمة التحقيق

جاكوب بارت (ت ١٩١٤).

- كتاب الفصيح لثعلب ١٨٧٦ م .
- ديوان القطامي (عمير بن شيم) ١٩٠٢ م .
- جوتفلف برجشترامر (ت ١٩٣٣) .
- المنحولات على جالينوس في شرح الأسابيع لبقراط، بترجمة حنين بن إسحق ١٩١٤ م .
- رسالة حنين بن إسحق في الترجمات السريانية والعربية لكتب جالينوس ١٩٢٥ م .
- كتاب اللامات لأحمد بن فارس الرازي ١٩٢٦ .
- القراءات الشاذة في القرآن لابن خالويه ١٩٢٩ .
- طبقات القراء لابن الجزري ١٩٢٩ .
- كارل بروكلمان (ت ١٩٥٦) .
- ديوان ليبد بن ربيعة العامري ١٨١٩ .
- تليقح فهوم الأثر في مختصر الأخبار والسير، لابن الجوزي ١٨٩٢ .
- عيون الأخبار لابن قتيبة، ج ١، ط ١٩٠٠، وج ٢ ط ١٩٠٣، وج ٢ ط ١٩٠٦، وج ٤ ط ١٩٠٨ م .
- الجزء الثامن من الطبقات الكبرى لابن سعد ١٩٠٤ م .
- فريدريش ديتريش (ت ١٩٠٣) [أفرا ديتريش]
- ألفية ابن مالك مع شرح ابن عقيل ١٨٥١ م .
- شرح ديوان المتنبي للواحدي ١٨٥٨ - ١٨٦١ م .
- مختارات من رسائل إخوان الصفا ١٨٨٣ م .
- مجموعة من رسائل الفارابي ١٨٩٠ - ١٨٩٢ م .
- آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ١٨٩٥ م .

هاينريش ليبريشت فلايشر (ت ١٨٨٨)

- تفسير اليضاوي للقرآن الكريم ١٨٤٦ - ١٨٤٨ م .

جوستاف فليجل (ت ١٨٧٠) [القرأولوج]

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة (٧م) ١٨٣٥ م .

- التعريفات للشريف الجرجاني، وألحق به رسالة صغيرة في تعريف

الاصطلاحات لمحيي الدين بن عربي ١٨٤٥ م .

- ناج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ١٨٦٢ م .

- الفهرست للتدريج ١٨٧١ - ١٨٧٢ م .

روالد جايو (ت ١٩٢٩)

- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، ثم ألحق به أشعار الأعشى

الآخرين ١٩٠٥ - ١٩١٩ م .

- كتاب الوحوش للأصمعي ١٩٠٨ م .

جولدسبير (ت ١٩٠٦) [مجرى الأصل]

- ديوان الخطيئة بشرح السكري ١٨٩٣ .

- كتاب المعمرين للسجستاني ١٨٩٩ .

جوزيف فون هامر بورجشتال (ت ١٨٥٦) [نمساوي]

- حقق مقامات الزمخشري المسماة: أطواق الذهب ١٨٣٥ .

جوزيف هيل (ت ١٩٥٠)

- طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ١٩١٦ م .

- دواوين الشعراء الهذليين (في مجلدين) ١٩٢٦، ١٩٣٣ م .

يوهان جوفريد لودفيج كوزجارت (ت ١٨٦٢)

- رحلة ابن بطوطة ١٨١٨ م .

- معلقة عمرو بن كلثوم بشرح الزوزني ١٨١٩ م .

- تاريخ الطبري (٤ج) ١٨٣١ - ١٨٥٣ .
- الجزء الأول من أشعار الهذليين ١٨٣٤م .
- الأغاني للأصفهاني (الجزء الأول) ١٨٤٠م .
- فريز لورنكو (١٩٥٣م) [الماني القسب الجنسية الإنجليزية] (قرأ فريقتس)
- الأصمعيات، بشرح ابن السكيت ١٩٠٧م .
- قصيدة كعب بن زهير وشرحها للتبريزي ١٣٦٣هـ .
- جمهرة اللغة لابن دريد بالاشتراك مع محمد بن أبي الخليل السورتي ١٣٤١ - ١٣٤٤هـ (٤ مج) .
- أخبار النحويين البصريين للسيرافي ١٩٣٥م .
- المعاني الكبير لابن قتيبة ١٩٣٥م .
- كتاب التيجان في تواريخ ملوك حمير لابن هشام، عن وهب بن منبه، وفي ذيله ما بقي من رواية عبيد بن شربة عن الأسم البائدة .
- معجم الشعراء للمرزباني ١٣٤٥هـ .
- المؤلف والمختلف للأمدى ١٣٥٤هـ .
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني .
- الأمالي للبيزدي .
- الجواهر في معرفة الجواهر للبيروني .
- المنتظم لابن الجوزي .
- كتاب الأفعال لابن القطّاع .
- كتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم .
- وحقق الدواوين الآتية: النعمان بن بشير الأنصاري، مزاحم العقيلي، طفيل بن عوف الغنوي، الطرمّاح بن حكيم الطائي .

(أوجست ميللر [القرآن] موللر (امرو القيس بن الطحان) (ت ١٨٩٢)

- حقق كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة، لكنه تركه
لناشر مصري أسقط منه كل التعليقات على الكتاب مفسداً التحقيق، فقام ميللر
بنشر التعليقات والتصويبات التي استغرقت أكثر من مائتي صفحة في كينجز
برج ١٨٨٤ م.

(إدوارد بوكوك (ت ١٦٩١ م)

- لامية المعجم للطبراني ١٦٦١ م.

- تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج بن العبري ١٦٦٣ م.

- فصول من شرح موسى بن ميمون على المشنا ١٦٥٥ م.

يوهان جاكوب رايكه (ت ١٧٧٤)

- معلقة طرفة بن العبد مع شرح النحاس ١٧٤٢ م.

- رسالة ابن زيدون إلى ابن عبدوس ١٧٥٥ م.

هلموت ريتز (ت ١٩٧١)

- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١٩٢٩ - ١٩٣٣ م.

- الجزء الأول من الوافي بالوفيات للصفدي ١٩٣١ م - نشر ضمن

النشريات الإسلامية واستمر إصدارها حتى وصلت إلى ج ٢٧، اشترك

في تحقيقها ألمان وعرب، ضمن هذه النشريات.

- من أناب إلى الله، للحارث المحاسبي ١٩٣٥ م.

- السوانح لأحمد الغزالي ١٩٤٢ م.

- الكراجوز، نشر وترجمة وشرح ١٩٤١، ١٩٥٣ م.

- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ١٩٥٤ م.

- مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار القيوب لابن الدباغ ١٩٥٩ م.

- كيمياء السعادة لأبي حامد الغزالي ١٩٥٩ م.

- فرق الشيعة للنووي ١٩٣١ م.

- رسالة في دفع الاحوال للكسبي بالاشتراك مع قنبر ١٩٣٨م.
- يوليوس ليرت (١٩١١م)
- انتخاب في علاج ليراف الموند للموصلي ١٩٠٢م.
- رسالة في العين من كتاب القانون لابن سينا. مملوثة مير شيرج ١٩٠٢م.
- تاريخ الحكماء للقطبي ١٩٠٣م.
- جوزيف شافت (١٩٦٩م)
- كتاب الخيل والمخارج للخصاف ١٩٢٣م.
- كتاب الخيل لأبي حاتم القزويني ١٩٢٤م.
- كتاب الشفعة للطحاوي ١٩٢٩م.
- كتاب المخارج في الخيل للشيباني ١٩٣٠م.
- رسالة جالينوس في الأسماء الطبية بترجمة حنين بن إسحق ١٩٣١م.
- اختلاف الفقهاء لأبي جعفر الطبري ١٩٣٣م.
- خمس رسائل لابن بطلان البغلدي وابن رضوان المصري ١٩٣٧م.
- الرسالة الكاملة لابن النفيس ١٩٦٨م.
- كتاب التوحيد للماتريدي ١٩٦٨م.
- فريدرش شولتز (١٩٢٢م) [سويسري]
- ديوان حاتم بن عبد الله الطائي ١٨٩٧م.
- ما تبقى من شعر منسوب إلى أمية بن أبي الصلت ١٩١١م.
- الويز شيرلنجر (١٨٩٣م)
- الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي ١٨٤١-١٨٤٦م.
- فهرس كتب الشيعة للطوسي ١٨٥٣-١٨٥٥م.

هاينريش توربيكه (ت ١٨٩٠م)

- ديوان عنترة بن شداد العبسي ١٨٦٧م .
- شارك في إخراج السلسلة الثانية من تاريخ الطبري، ص ١-٢٩٥ {١٨٨١} .
- يوهان أوجست فوللرز (ت ١٨٨٠)
- معلقة الحارث بن حلزة بشرح الزوزني، مع قصيدتين لأبي العلاء المعري ١٨٢٧م .
- معلقة طرفة بن العبد بشرح الزوزني، مع إضافة مختارات من تعليقات رايسك ١٨٢٧م .

*

يوليوس فلهاوزن (١٩١٨)

- كتاب المغازي للواقدي ١٩٨٢م .
- كتاب الأصنام لابن الكلبي ١٨٨٧ ثم ط ثانية ١٨٩٧م .
- فواغز فيبكه (ت ١٨٦٤)

- حقق النص العربي لكتاب «جبر عمر الحيام» ١٨٥١م .
- هاينريش فريديماند فيستفالد (ت ١٨٩٩م)
- طبقات الحفاظ للذهبي (٣ مج) ١٨٣٣م .
- الباب في تهذيب الأنساب للسمعاني ١٨٣٥م .
- أقسام من وفيات الأعيان لابن خلكان ١٨٥٠م .
- تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢ مج) ١٨٤٢ - ١٨٤٧م .
- تاريخ الأقباط (مستخرج من خطط المقرئ) ١٨٤٥م .
- البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب، للمقرئ، ج ٣ ١٨٤٥ - ١٨٥٧م .

من اللغات

- المشترك وضعاً والمختلف صقلاً لياقوت الحموي ١٨٤٦م .
- عجائب المخلوقات، وآثار البلاد، للقزويني ١٨٤٨ - ١٨٤٩م .
- كتاب المعارف لابن قتيبة ١٨٥٠م .

- رسالة محمد بن حبيب عن اتفاق أسماء القبائل العربية وافتراقها ١٨٥٠ م .
 - كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدي ١٨٥٤ م .
 - السيرة النبوية لابن إسحق برواية عبد الملك بن هشام (٢ مج) ١٨٥٧ - ١٨٦٠ م .
 - حقق أخبار مكة (نصوص عربية في ٣ مجلدات) ١٨٧٥ - ١٨٦١ م .
 - أ- تاريخ مكة والبيت الحرام لقطب الدين . ب - أخبار مكة للأزرقي وابنه واستأنفها إسحق الخزامي، وأكملها ابن أخيه . ج- نصوص للفاكهني وابن ظهيرة . د- ترجمة ألمانية للمجلدات الثلاثة الأولى .
 - الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للنهرواني ١٨٥٧ م .
 - ديوان علقمة الفحل ١٨٥٨ م .
 - المدينة للسهمودي ١٨٦٤ م .
 - معجم البلدان لياقوت، بمعاونة فرايتاج (٦ مج) ١٨٦٦ - ١٨٧٣ م .
 - معجم ما استعجم للبكري ١٨٧٦ م .
 - الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني، بالاشتراك مع زاخاو ١٨٧٦ م .
 - جغرافية مصر، عن القلقشندي .
- (١٩٤١م)
- ١- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني ١٩٣٠ م .
 - ٢- كتاب المقنع في رسم مصاحف الأمصار، مع كتاب التَقَط، للداني أيضاً ١٩٣٠ م .



الصباح: هل اقتصر على الصباح؟

الصحاح؛ هل اقتصر على الصحاح؟

هناك أوهام منتشرة بين اللغويين العرب المحدثين موروثه من بعض القدماء، أخذوها بالتسليم. ومن هذه الأوهام أن معجم (تاج اللغة وصحاح العربية)^(١) لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٤٠٠هـ) أول معجم عربي اقتصر على (الصحاح)، بل إنه المعجم الوحيد الذي فعل ذلك .

وسنقتصر في بحثنا على مناقشة هذه القضية، معتمدين في بيان حقيقة الوهم على (الصحاح) نفسه لا على أقوال فلان وفلان وإن جلّت منزلتهم العلمية .

نبدأ فنقول: إن مصدر هذا الوهم يعود إلى الجوهري نفسه الذي يقول في مقدمة الصحاح: «فإني قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة... بعد تحصيلها بالعراق رواية وإتقانها دراية، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية. ولم أَلُ في ذلك نصحاً ولا ادخرت وسعاً»^(٢) .

وقبل أن ننظر في التزام الجوهري بما قاله، نتساءل: هل هناك من أصحاب المعاجم من ادعى أن كتابه سيضم (غير الصحيح)؟ والجواب بالنفي. بل الأمر على العكس من ذلك، فهناك من سبق الجوهري في هذا الزعم، فها هو الأزهري (ت ٣٧٠) يقول عن كتابه: «وقد سميت كتابي هذا (تهذيب اللغة) لأنني قصدت بما جمعت فيه، نفي ما أدخل في لغات العرب من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغتها، وغيرها الغُثم عن سنتها، فهدبت ما جمعت في

(١) ستخدم الطبعة الثالثة، بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٤م .

(٢) الجوهري: الصحاح ص ٣٣ .

كتابي من التصحيح والخطأ، بقدر علمي. ولم أحرص على تطويل الكتاب بالحشو الذي لم أعرف أصله، والغريب الذي لم يسند الثقات إلى العرب^(١). ومع هذا التصريح من الأزهرى - الذي لا يختلف عن تصريح الجوهرى إلا في حدة لهجته - فإن أحدًا من الباحثين لم يحكم على معجمه حكمه على الجوهرى وكتابه. فهنا ازدواج في النظر إلى أمر واحد لدى شخصين أو مجموعة أشخاص .

فها هو السيوطي في معرض الحديث عن المعاجم التي سبقت الجوهرى زمنيًا يقابل بينها وبين الصحاح قائلًا: «وغالب هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح، بل جمعوا ما صح وغيره، ونبهون على ما لم يثبت غالبًا. وأول من التزم الصحيح مقتصرًا عليه الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى^(٢)» ولم يكتف السيوطي بهذا الحكم، بل زاد فقال إنه «في تاريخ اللغة نظير صحيح البخاري في كتب الحديث. وليس المدار في الاعتماد على كثرة الجمع، بل على شرط الصحة»^(٣).

وقد توفر العلامة حسين نصار على دراسة المعاجم العربية - والصحاح منها- وكانت أحكامه متناقضة، ونحن ننقل عبارته على طولها حتى يتبين الأمر. قال: «الجوهرى ليس أول من التزم الصحيح، بل التزمه قبله القالي والأزهرى، كما التزمه معاصره ابن فارس، وشعر بذلك السيوطي. ولكن هناك فرقًا بين الصحاح وغيره، يبين من عبارة السيوطي، فهو يرى أنه التزم الصحيح

(١) الأزهرى: تهذيب اللغة ج ١ / ٥٤ (تح عبد السلام محمد هارون)، القاهرة: المؤسسة العامة للتأليف والنشر ١٩٦٩-٦٤ م.

(٢) السيوطي: المزهري ٩٧ / ١ (تح محمد أحمد جاد للولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم) القاهرة: مكتبة عيسى الحلبي ١٩٨٥ م.

(٣) السيوطي: المزهري ١٠١ / ١، ويمثل ذلك يقول عبد القادر عبد الجليل: المدارس المعجمية دراسة في البنية التركيبية، عمان: دار صفاء ١٩٩٩ م، ص ٣٠٦، ومثله في: سعيد حسن بحيري: للدخل إلى مصادر اللغة العربية. القاهرة: مؤسسة للختار ٢٠٠٤ م، ص ٢٩١ .

واقصر عليه فلم يذكر سواء، أما هذه المعاجم فلم تقتصر عليه، بل ذكرت غير الصحيح ونقدته. وقد رأينا ذلك فيها فالتزامها الصحيح يعني نقدها غيره وتزييفه. وكانت الدعائم التي أقام عليها الجوهري نقده للألفاظ السماع والفهم... ولم يفسر الجوهري في مقدمته القصيرة الكلام على هذه الدعائم، ولكن من الواضح أنها قريبة الشبه بدعائم الأزهرى^(١).

ونحن نوافقه على ما ذهب إليه من وجود سابقين على الجوهري التزاموا الصحيح، ولا نوافقه على أن الصحاح اقتصر على الصحيح فقط، فهو لم يقتصر عليه، مثله في ذلك مثل المعاجم التي سبقت في الزمن أو كانت متأخرة عنه.

ثم يمضي العلامة حسين نصار فيزعم أن من الأمور التي دفعت المؤلف إلى الاختصار التزامه الصحيح من الألفاظ، وأنه في ذلك مثل معاصريه إلا أنه لم يجرح اللغويين كما فعل الأزهرى^(٢) فالفرق إذاً حدة في لهجة الأزهرى ولطف في لهجة الجوهري. أي ليس هناك فرق حقيقي بينهما.

ويمضي حسين نصار في الحديث عن الصحاح قائلاً: «ولم يمنعه التزامه الصحيح من العناية بالمعرب من الألفاظ... والأمر الغريب، وإن تلاءم مع كونه تركياً، شرحه بعض الألفاظ العربية بأخرى فارسية... ولم تمنعه الصحة أيضاً من إيراد الألفاظ الإسلامية والمولدة مع التنبيه عليها»^(٣).

ونحن نقول: أبعد ذلك يجوز القول بأنه اقتصر على الصحاح وحدها؟ نعم جاز ذلك لدى الباحث الفاضل؛ فعند ذكره خصائص (مدرسة الصحاح) وعيوبها، يقول عن الصحاح: «وتفترق فيما عدا ذلك إذ يلتزم الصحاح الألفاظ الصحيحة وحدها!»^(٤) ومثل هذا التناقض نراه عند محقق الصحاح، فهو يزعم

(١) حسين نصار: المعجم العربي نشأته وتطوره، القاهرة: مكتبة مصر ١٩٦٨م، ص ٤٨٥.

(٢) حسين نصار: المعجم العربي، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٣) حسين نصار: المعجم العربي، ص ٤٩٨ - ٤٩٩.

(٤) المعجم العربي، ص ٦٨٦.

أن الجوهري «إنما أراد أن يقدم معجماً، فقدم أصح معجم عربي خطأ بالتأليف المعجمي أوسع خطوة عرفها تاريخ المعجمات العربية»^(١) «وسترى من المحقق فيما بعد أحكاماً تنقض هذا الحكم. ويعلل المحقق قلة مواد (الصحاح) بأن الجوهري «قد أغفل مواد كثيرة تعد من (تاج اللغة وصحاح العربية)، ولو لم يغفلها التزاماً للصحيح وطرحاً لما ظنه غير صحيح لقدّم لنا ثروة لغوية ضخمة»^(٢).

ويستمر هذا الوهم عند الباحثين، فتجد باحثاً يقول: «ولئن كان همّ أصحاب المعجمات قبله إحصاء مفردات اللغة وتجميعها، كل قدر طاقته وعلمه مع اهتمام بالنادر الغريب، وبعضهم الآخر بالجمهور من كلام العرب، فإن همّ الجوهري انحصر في جمع الصحيح منها، إذ رأى أن العربية داخلها مع الزمن ما ليس منها، بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأمم، إلى درجة جعلت الصحيح يشبه بغيره. وهكذا كان همّ الجوهري يتجه نحو جمع ما صح له سماعه من ألفاظ اللغة العربية»^(٣) كما نجد باحثاً بارزاً في مجال المعاجم العربية يقول: «إن نزعة الصحاح إلى البحث عن الصحيح نزعة انكماشية في العربية...»^(٤).

ويزيد بعض الباحثين نغمة في العزف على طنبور الصحاح فيقول: «بيد أن العجبة التي كانت تظهر على استحياء أحياناً إلى عهد سيبويه أصبحت تظهر

(١) مقدمة محقق الصحاح، ص ٥.

(٢) مقدمة محقق الصحاح، ص ٣٥. وتقبل هذا الرأي بالتسليم: محمد ضاري حمادي: الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية، بغداد: اللجنة الوطنية للاحتفال بطلع القرن الخامس عشر الهجري ١٩٨٥م، ص ١٤٢.

(٣) عبد المنظف الصوفي: اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، دمشق: دار طلاس ١٩٨٦م، ص ١٦٦.
وانظر مثل ذلك عند: هزة حسن: المكتبة العربية، دراسة لأهميات الكتب في الثقافة العربية، دمشق ١٩٧٠م، ص ١٨٥. وهز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، بيروت: دار النهضة العربية ١٩٧٦م، ص ٣٦٥. وحاتم صالح الضامن: علم اللغة، جامعة بغداد ١٩٨٩م، ص ٨٥.
(٤) محمد رشاد الحمزاوي: من قضايا المعجم قديماً وحديثاً، بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦م، ص ٥٣.

كثيراً بغير حياء، وأصبح النحاة واللغويون في القرن الرابع الهجري وكل غاياتهم المحافظة على العربية، وتسجيل فصيحها القديم وتقيته مما شابه من اللحن والمعجمة، وفي هذا الإطار نفهم موقف الجوهري... حين اقتصر في معجمه على الصحيح الفصح^(١).

وإذا كنا قد رأينا أن الجوهري ليس أول من زعم التزام العربي الصحيح الفصح، بل شاركه في هذا الزعم غيره من سابقه ولحقه، وإن لم نوصف أعمالهم بصفة الجوهري، فإننا سندلل على أن الجوهري، لم يجمع (الصحيح) فقط، بل جمع معه أشياء أخرى. ونبدأ فنقرر أن الجوهري جمع من كتب الخليل وابن دريد والأزهري وغيرهم كثير من الألفاظ بالترتيب الخاص الذي ارتضاه (منهج الباب والفصل) وبالتقسيم الداخلي الذي رآه. كما جمع ألفاظاً قليلة من البدو الذين عاصروهم^(٢) وهذا يعني أنه التزم زميناً في جمع الألفاظ ومعانيها، الألفاظ المستخدمة في القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام والعصر الأموي، وجزءاً من الشعر العباسي حتى منتصف القرن الثاني الهجري، بغض النظر عن قبيلة الشاعر مطلقاً. وهذا هو النطاق الزمني الذي ارتضاه علماء العربية القدماء للغة الأدبية كما يتمثل في أعمالهم اللغوية المختلفة. ومع ذلك فقد خرج الجوهري في الصحاح على هذا النطاق الزمني للاستشهاد بالشعر الفصح، ذلك أنه استشهد:

أ- بيت لربيعة الرقي (ت ١٩٨هـ) وذكر أنه مولد وليس بحجة، وأن الحجة قول الأعشى (شتت ٢٥٥هـ)، وما كان أغناه عن ذلك.

ب- وبشعر الحسين بن مطير الأسدي (ت ١٧٠هـ)، (ملع ١٢٨٧).

(١) محمد حسن عبد العزيز: التعريب في القديم والحديث، القاهرة: دار الفكر العربي ١٩٩٠، ص ٧٢. وانظر:

رجب عبد الجواد إبراهيم: دراسات في الدلالة والمعجم، القاهرة: مكتبة الآداب ٢٠٠١م ص ١٣٤.

(٢) الصحاح، مواد (ص ٢٩٦) و(نفس ٩٨٢) و(كرم ٢٠٢١)، وسنلتزم ذكر رقم الصفحة أمام المادة، تسيلاً لمن أراد المراجعة.

ج- ويشعر أبي العطاء السندي (ت ١٨٠هـ)، (جب ١٠٦)، و(أثم ١٨٥٧).

د- ويشعر أبي نواس (ت ١٩٥هـ)، (يا ٨٥).

هـ- ويشعر كلثوم بن عمرو العتابي (ت ٢٠٨هـ)، (برد ٤٤٦).

و- ويشعر بشر بن المعتمر (ت ٢١٠هـ)، (ريح ٣٦٣).

ز- ويشعر أبي تمام الطائي (ت ٢٣١)، (مضر ٨١٨).

وهذا أكثر مما ورد عند من سبق الجوهري كأبي عبيدة، وابن قتيبة، والمبرد، وثعلب، وابن دريد، وابن الأنباري، والفارابي، والخطابي^(١).

أما النطاق المكاني للغة الحياة اليومية، فكان مقصوراً على قبائل بعينها، هي: تميم وقيس وأسد وهذيل وبعض طيء وبعض كنانة^(٢). أما ما نقل عن غير هذه القبائل حصراً، فليس من الصحيح الفصيح.

ولذلك تعرض ابن دريد (ت ٣٢١هـ) لحملة شعواء من صاحب تهذيب اللغة، بسبب اهتمامه بالألفاظ اليمنية. وإن كان موقف ابن دريد - في رأيي - أكثر علمية من غيره، ذلك أنه يذكر اللفظ ويذكر أنه لغة يمانية أو لغة لأهل اليمن، أو لغة حمير، أو لغة شعاء لقبيلة كذا من اليمن، أو لغة مرغوب عنها لقبيلة كذا. ولم يدلس فيخفي مصادر هذه الألفاظ ومعانيها. أما الجوهري الذي زعم التزام (الصحيح) دون غيره فكان ينقل عن ابن دريد ألفاظاً يمانية، لا يذكر أنها يمانية. ومن يقرأ ذلك يظنها من الألفاظ الفصيحة العامة وليست مقصورة على قوم دون غيرهم. فمن ذلك:

الْقَلْبُ وَالْقُلُوبُ بِمَعْنَى الذُّبَابِ^(٣).

(١) انظر: محمد حسن حسن جيل: الاستدراك على المعاجم العربية في ضوء متين من المستدركات الجديدة على لسان العرب ونتاج العروض، القاهرة: دار الفكر العربي ١٩٨٦م، ص ٦٠ - ٦٧.

(٢) السيوطي: المزهري ١ / ٢١١ - ٢١٢.

(٣) الصحاح (٢٠٥) وقارن به ابن دريد: جمهرة اللغة، نج محمد يوسف السورتي، وفريش كركوك، جيل آباد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٣٤٥هـ ج ١ / ٣٧٥.

الهوب بمعنى وهج النار^(١) .

بد الرياح بمعنى القرد الذكر^(٢) .

وقد يذكر الجوهري أن هذا اللفظ أو ذاك بلغة اليمن أو حمير،
لكن دون أن يتص على مصدره وهو ابن دريد، ومن ذلك:

الوثب بمعنى الجلوس^(٣) .

الكُعموم بمعنى الحمار^(٤) .

الرَّيم بمعنى الدرجة^(٥) ، وهناك مواضع أخرى^(٦) .

ومن الغريب أن الجوهري - في غير الألفاظ اليمنية - يذكر نقوله عن ابن
دريد دون أن ينكر عليه شيئاً^(٧) ، باستثناء موضع واحد، قال فيه: «ذكر ابن دريد
أن القرزوم بالقاف مضمومة: لوح الإسكاف المدور، وتشبه به كِرْكِرَة البعير،
وهو بالفاء أعلى»^(٨) .

وهكذا رأينا اختراق الصحاح للتطابقين الزماني والمكاني لما يعد
فصيحاً عند القدماء. ويتعلق بذلك أن علماء العربية عدوا المعاني التي
تجاوزت نطاق منتصف القرن الثاني الهجري (مولدة) لا (فصيحة).

(١) الصحاح (هوب ٢٣٩) وقارن بالجمهرة جـ ١ / ٣٣٢ .

(٢) الصحاح (ريح ٣٦٣) وقارن بالجمهرة جـ ١ / ٩٨ .

(٣) الصحاح (وثب ٢٣١) وقارن بالجمهرة جـ ١ / ٢٠٥ وجـ ٣ / ١٩٩ .

(٤) الصحاح (كع ١٢٧٦)، وقارن بالجمهرة جـ ٣ / ٣٤٣ .

(٥) الصحاح (ريم ١٩٤٠) وقارن بالجمهرة جـ ٣ / ٤٦ .

(٦) انظر: الصحاح (زيب)، و(شتر ٦٩٣)، و(صتر ٧١٦)، و(بلس ٩٠٩)، و(فلك ١٦٠٢)، و(سها ٢٣٨٦) .

(٧) انظر: الصحاح (تضب ٢٠٤)، و(تقب ٢٠٤)، و(قد ٢٥٧)، و(ريس ٩٣٣)، و(مقص ١٠٥٧)، و(نق ١٥٤٥)، و(حشك ١٥٨٠)، و(بدل ١١٣٢)، و(حمل ١٦٧٦) و(سحل ١٧٢٧)، و(زقم ١٩٤٣)،

و(ضم ١٩٧٢)، و(فقم ٢٠٠٣)، و(قوم ٢٠٠٥)، و(وضم ٢٠٥٢)، و(سفن ٢١٣٦)، و(مون ٢٢١٨)،

و(ربا ٢٣٥٠)، و(زها ٢٢٧٠)، و(تعا ٢٤٦٥)، و(نقا ٢٤٩٥) .

(٨) الصحاح (قرزم ٢٠١٠) .

وفي هذا الجانب نجد كثيراً من (المولد) الذي نص عليه، وكان عليه - تطبيقاً للالتزام الصحيح وحده - ألا يذكرها، أو إن شاء أن يفرد لها تأليفاً مستقلاً، فمن ذلك:

(عجج ٣٢٧): العجة بالضم، هذا الطعام الذي يتخذ من البيض، أظنه مولداً.

(جدة ٤٥٤): جديدة السرج: ما تحت الدفتين من الرفادة واللبد الملتق.

وهما جديدتان. وهو مولد.

(فسر ٧٨١): الفسر: نظر الطبيب إلى الماء، وكذلك التفسرة. وأظنه مولداً.

(قزز ٨٩١): أما القافزة فمولدة.

(صفع ١٢٤٣): الصفع كلمة مولدة، والرجل صفعان.

(قصف ١٤١٦): القصف: اللهو واللعب يقال: إنها مولدة.

وفي الصحاح (مولد) غير ذلك^(١).

ويرتبط بعدم اكتفاء الجوهري بالصحيح وحده أنه نقل كثيراً من الاستخدامات العامة؛ ونص على ذلك. والفرق بين العامي والمولد عنده - كما يظهر من استقراء مواضع ورودهما - أن المولد متعلق بدلالة جديدة للألفاظ لا يعرفها العرب الفصحاء. أما العامي فمتعلق بتغيير العامة لبنية الألفاظ بتبديل حركة، أو حرف، أو وزن. هذا في الغالب.

ونراه في بعض المواد يفسر اللفظ بتسمية العامة. ومن ذلك:

(حلب ١١٦): والحلباب بالكسر: النبت الذي تسميه العامة: اللبلاب.

(قرب ٢٠٠): هو قريبي وذو قرابتي، وهم أقربائي وأقراي. والعامة تقول:

هو قرابتي وهم قراباتي.

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر الصحاح (قعب ١٩٨)، و(شتت ٣)، و(بحر ٥٨٦)، و(طنز ٨٨٣)،

و(جسم ٩١٤)، و(طرش ١٠٠٩)، و(حفص ١٠٤٥)، و(سرم ١٩٤٩)، و(لبن ٢١٩٢).

(بيت ٢٤٤): البيت معروف... وتصغيره بيت... والعامية تقول: بويت.
وكذلك القول في تصغير شيخ وغير وشيء وأشباهاها.
(سلح ٣٧٦) سيلحون قرية والعامية تقول: سالحون.
(لخخ ٤٣٠): سكران مُلَخَّخٌ، أي مختلط عقله. والعامية تقول: مُلَطَّخ.
(زيد ٤٨٢): أفعل ذلك زيادة والعامية تقول: زائدة.
(صفرد ٤٩٨): الصفُرد: طائر تسميه العامية أبا المليلح.
(أجر ٥٨٦): أجرته الدار: أكرمته، والعامية تقول: واجرته.
(جنز ٨٧٠): الجنَازة واحدة الجنائز، والعامية تقول: الجنَازة بالفتح.
وفي الصحاح مواضع أخرى يذكر فيها (العامية) نحيل القارئ إلى بعضها^(١).
ويرتبط بذكر العامية في هذا المعجم المفترض أن يكون وقفاً على الصحيح
كما زعم مؤلفه، أن الجوهري يذكر صيغاً ومعاني ينص على أنها (لغة رديئة)
في مواضع كثيرة أيضاً يذكر الصيغة أو الجملة (الصحيحة) ويعقب بقوله: «ولا
تقل...» أو «ليست فصيحة» أو «لا يقال» ومن ذلك:
(رذب ١٣٥): المرزاب لغة في الميزاب، وليست بالفصيحة.
(توت ٢٤٥): التوت الفرصاد ولا تقل: التوت.
(ملح ٤٠٤): سمكٌ مَلِيحٌ ومملوح ولا يقال: مالح.
(شيخ ٤٥٢): وتصغير الشيخ شُيخٌ وشيخ أيضاً بالكسر، ولا تقل شويخ.
(طرد ٥٠٢): طرده فذهب، ولا يقال منه: انفعِل ولا اُفتمِل إلا في لغة رديئة.
(كثر ٨٠٣): الكثرة نقِيضُ القلة. ولا تقل الكثرة بالكسر فإنها لغة رديئة.
(وعر ٨٤٦): جبل وعرٌ بالتسكين، ومطلب وعر. قال الأصمعي: ولا تقل: وعر.

(١) الصحاح (عجز ٨٨٤)، و(أنس ٩٠٤)، و(جنس ٩١٥)، و(رصص ١٠٤١)، و(فصص ١٠٤٨)، و(مصص ١٠٥٧)، و(منص ١٠٥٧)، و(قرع ١٢٦٢) وكيفيك من القلادة ما أحاط بالمتن.

(درع ١٢٠٧): وربما قالوا: غدِرع، إذا لبس المدرعة، وهي لغة ضعيفة .

(وقف ١٤٤٠): وقفت الدار للمساكين وقفًا. وأوقفتها بالآلف لغة رديئة.

ولن أراد المزيد من هذه اللغات الرديئة، أو الألفاظ التي قال الجوهري: إنه لا يدري ما صحتها، نحيل إلى بعض المواضع^(١). ونلاحظ أنه قد يخطئ لغة فصيحة :

(أهل ١٦٢٩): فلان أهل لكذا، ولا تقل مستأهل، والعامية تقول: .

وهذا الذي نهى عنه فصيح؛ جاء في التهذيب (ت ٣٧٠): «خطأ بعض الناس قول القائل: فلان يستأهل أن يكرم بمعنى يستحق الكرامة. قال: ولا يكون الاستئصال إلا من الإهالة. وأجاز ذلك كثير من أهل الأدب. وأما أنا فلا أنكره ولا أخطئ من قاله لأنني سمعته. وقد سمعت أعرابياً فصيحاً من بني أسد يقول لرجل أولي كرامة: أنت تستأهل ما أوليت. وذلك بحضرة جماعة من الأعراب فما أنكروا قوله»^(٢).

وعلى العكس من تخطئة الفصيح قد يأتي بعامي على أنه فصيح، قال في (ذهب ١٣٠): «وقوله: (به مذهب) يعنون به الوسوسة في الماء وكثرة استعماله». وهذا استعمال عامي، فها هو التبريزي في شرح ديوان أبي تمام ينقل عن أبي العلاء المعري (ت ٤٤٩): «وقوله: (أمذهب أم مذهب) يقول: أ طريقة هو وخلق أم مذهب، من قول العامة: (بفلان مذهب) إذا كان يلج بالشئ ويغري به. وأكثر ما يستعمل ذلك في الطهارة، يقال: بفلان مذهب إذا كان يتطهر ثم يظن أن طهارته لم تكمل فيعيدها. وذلك يعرض للقراء والمتنسين كثير»^(٣).

(١) الصحاح (جند ٥٦٦) و(طرمة ٥٦٦)، و(أزر ٥٧٨)، و(تيس ٩١١)، و(غلق ١٥٣٨)، و(نق ١٥٦٠)، و(رجل ١٧٥٠)، و(شول ١٧٤١)، و(فيل ١٧٩٤)، و(صم ١٩٩٢)، و(لم ٢٠٢٨)، و(من ٢١٧٠)، و(تن ٢١٥٨)، و(ألا ٢٢٧١)، و(ابن ٢٢٨٧)، و(شلا ٢٣٩٥)، و(شوى ٢٣٩٩)، و(كلى ٢٤٧٥)، و(لغا ٢٤٨٤)، و(نسا ٢٥٠٨)، و(هجا ٢٥٣٣)، و(شف ٢٢٣٧).

(٢) الأزهري: تهذيب اللغة، ج ٦، نع محمد خفاجي ومحمود علق، ص ٤١٨.

(٣) الخطيب التبريزي: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، (نع محمد عبده عزام، ط ٤، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٦م) ج ١ / ١٢٩.

وعلى كل حال ليس غرضنا بيان ما صححه وهو غير صحيح، ولا
المعكس.

وإذا كان الجوهري قد جمع مع الصحيح المولد والعامي واللغات الرديئة -
باعتباره هو - فإنه جمع في مواد معجمه كثيراً من الألفاظ الدخيلة التي
اقترضتها العربية من غيرها، ووسمها بالمُعَرَّب، وأشار أحياناً إلى اللغة مصدر
اللفظ. والقارئ المتبع لمواضع (المعرب) يجدها كثيرة، لا قليلة كما يتبادر إلى
ذهن من استلأت نفسه بأسطورة (التزام الجوهري الصحاح وحدها). وهذه
الكثرة نسوِّغ لنا القول بأنه يمكن استخراج كتاب كامل بالألفاظ المعربة منه. فاما
ما نص على أنه معرب - ذاكرًا مصدر المعرب أم غير ذاكر - فلستنا في حاجة
للتمثيل له. ويكفي أن نشير إلى أحد المدافعين عنه بحق وبغير حق، يقول عنه:
«وذكر مئات الكلمة المعربة، وأشار إلى الأسانيد في بعضها»^(١) ولم يتنبه هذا
المدافع إلى تناقضه عندما ذكر من قبل أنه أصبح معجم عربي. فإذا كان
(الصحاح) قد ضم مئات الكلمات المعربة، فماذا ترك من صحاح؟ ألم يكن
الأجدر به أن يترك مهمة جمع المعربات لمعجم لا يلتزم الصحاح وحدها؟ أو
لمعجم خاص يجمعها؟

والأمر هين من جهة الألفاظ التي ذكر أنها معربة، لكن هناك ألفاظاً لم
ينص على تعريبها، وهي دخيلة باعتراف من سبقه من المؤلفين ومن
تلاه زمنياً. ومن ذلك:

الإبوان، نص على تعريبه ابن دريد والجواليقي ولسان العرب^(٢).

الإبزار، نص على تعريبه الجواليقي^(٣).

(١) أحمد عبد الفضول عطار: (الصحاح ومدارس المعجمات، ط ٢ بيروت ١٩٧٩م)، ص ١٦٦.
(٢) انظر: الجوهرة ١ / ١٩١، والمعرب من الكلام الأجنبي على حروف المعجم تحت قـ. عبد الرحيم، دمشق: دار القلم
١٩٩٠م، ص ١١٣، ولسان العرب لابن منظور (ط دار المعارف، القاهرة ٧٩-١٩٨١م) (أون) ص ١٧٨.
(٣) الجواليقي، ص ١١٤.

البرنكان، نص على تعريبه الجواليقي^(١) .

الخندريس، نص على تعريبه ابن دريد والجواليقي^(٢) .

الزيق، نص على تعريبه ابن دريد ولسان العرب^(٣) .

الكرُّم، نص على تعريبه الجواليقي^(٤) .

القدَّان، نص على تعريبه الجواليقي^(٥) .

وهناك مصربات غير هذه لم ينص الجوهرى على كونها دخيلة، نشير إلى بعضها لمن شاء المقارنة^(٦) .

ولم يقف الجوهرى في الإكثار من جمع الألفاظ الدخيلة عند هذا الحد، بل زاد فأخذ يفسر الألفاظ العربية بألفاظ فارسية! وكأنه معجم ثنائي اللغة. ومن ذلك:

(غرب ١٩٤): الغرب ضرب من الشجر، وهو اسفيدار بالفارسية .

(قضب ٢٠٣): والقضبة والقضب: الرطبة، وهي الاسفت بالفارسية .

(ققب ٢٠٤): الققب والقيقبان: خشب تتخذ منه السروج، قال ابن دريد: هو بالفارسية آزادِرَحَت .

(زمج ٣٢٠): الزُمَج مثال الخُرْد: اسم طائر يقال له بالفارسية ده برادران .

(١) الجواليقي، ص ١٧٠ .

(٢) الجمهرة ٣ / ٣٣٠، ٤٠١، ٥٠١، والجواليقي ص ٢٠٧ .

(٣) الجمهرة ٣ / ١٥، ولسان العرب (زيق) ص ١٩٠١ .

(٤) الجواليقي ص ٥٥٣ .

(٥) الجواليقي ص ٤٧٦ .

(٦) قارن: الصحاح ص ١٠١٤، والجواليقي ص ١٢٠ .

الصحاح ص ١٨٧٠، والجواليقي ص ١٥٦ .

الصحاح ص ١٦١٩، والجواليقي ص ١٣٧ .

الصحاح ص ١٥٨٣، والجواليقي ص ٣١٤ .

الصحاح ص ١١٥٠، والجواليقي ص ٤٨٥ .

(سمهج ٣٢٣): سماهيج: جزيرة في البحر تدعى بالفارسية ماش ماهي
فمرَبَتْها العرب .

(قعد ٥٢٥) أبو عبيدة: القَعُود من الإبل: الذي يقتعده الراعي في كل
حاجة. قال: وهو بالفارسية رَخت.

(دبر ٦٥٢) الدِّبْرَة والدِّبَّار: المَشَارَة في المزرعة، وهي بالفارسية كُرْد.

(شجر ٦٩٣) الشَّجَار، الخَشْبَة التي توضع خلف الباب ويقال: هل
بالفارسية مَتَرَس .

(عبر ٧٣٥) العَبر بالفارسية بوستان أفروز .

(ثرط ١١١٧) الثَّرَط: شيء يستعمله الأساكفة، وهو بالفارسية سَرِش.

وفي الصحاح مثل ذلك كثير^(١).

وبعد أن وصلنا إلى هذه النقطة عجباً لدى بعض الباحثين، حين يعيرون على
الفيروزآبادي صاحب القاموس (ت ٨١٧هـ) إكثاره من ذكر المولد من الألفاظ،
والأعجمي؛ كما فعل الشدياق^(٢)، ورضوان^(٣). وهذه ليست عيوباً عند محقق
الصحاح الذي تنحصر (هناك الصحاح) عنده في تصحيف الألفاظ وتحريفها
وسوء تفسير الجوهري لبعضها^(٤) أما اعترافه بإكثاره من المعربات والمولد فلم تدخل
في (الهتات). هذا من جهة (الإكثار). أما تفسير اللفظ العربي بمرادف فارسي فلم
يعد عيباً على الجوهري (الملتزم بالصحاح فقط) لكنه عيب على الفيروزآبادي .

(١) انظر على سبيل المثال في الصحاح: (فتوح ٣٣٦) و(نرفع ٤٢٨)، و(جوز ٨٧١)، و(عنز ٨٨٨)، و(دعكر ٩٢٩)، و(دعس ٩٣١)، و(عرس ٩٤٨)، و(فرس ٩٥٨)، و(نمض ١٠٤٩)، و(قصص ١٠٥٢)، و(عرض ١٠٨٨)، و(وسط ١١٣٥)، و(شكع ١٢٣٨)، و(وكمع ١٣٠٣)، و(بلغ ١٣١٧)، و(حرف ١٣٤٣)، و(زرف ١٣٦٩)، و(قطف ١٤١٧)، و(دس ١٤٧٤)، و(دهق ١٤٧٨)، و(زلق ١٤٩٢) .

(٢) أحمد فارس الشدياق: الجاموس على القاموس، استايل: ط الجواثب ١٢٩٩ ص ١٣٢ .

(٣) محمد مصطفى رضوان: دراسات في القاموس المحيط، بيروت: مطابع الشرق ١٩٧٣م، ص ٣١٣ - ٣٢٤ .

(٤) أحمد عبد الغفور عطار: الصحاح ومدارس اللغويات، ص ١٦٤ - ١٧٧ .

فها هو الشدياق في أكثر من موضع من (الجناسوس) يتتقده؛ لأنه يعرض الكلمة العربية من أسماء النبات أو الحيوان أو الجواهر ثم يذكر مرادفها الفارسي^(١). وها هو حسين نصار الذي أشار إلى هذه الظاهرة عند الجوهرى ولم ير فيها تناقضاً مع التزامه بالصحيح^(٢) يتحدث عن الظاهرة نفسها عند الفيروزآبادي فيقول: «فلا تثريب عليه في ذكر الألفاظ المعربة والمولدة إذا فسرها ونه على توليدها وتعريبها، ولكن لا حق له في ذكر المرادف الأعجمي للألفاظ المعربة»^(٣)!! ويرى باحث آخر أنه في شرحه للألفاظ العربية بالفارسية «إنما يتوخى مبدأ الإيصال السريع»^(٤).



خاتمة

نخلص من كل ما سبق بأن الجوهرى لم يقتصر في معجمه على (الصحيح) فقط بل جمع - مع الصحيح - المولد، والعامي، واللغات الرديئة، ودلس في بعضها وعدة فصيحاً، كما ضمّ مئات من الكلمات الأعجمية نص على عجمة بعضها، وبعضها لم ينص على عجمته. أضف إلى ذلك إلى أنه أكثر من تفسير اللفظ العربي بالأعجمي. وهو في الجانب الأخير يتفوق على الفيروزآبادي الذي رمي - وحده - بهذه التهمة. وبحسنا ليس استثناءً لحملة القاموس على الصحيح، فانتقاداته خارجة عن نطاق انتقاداتنا. إننا بحسنا كشف لأسطورة التزام الصحيح بالعربي الصحيح الفصيح وحده. نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا فيما رمناه، وهو ولي الهداية والتوفيق.



(١) الجناسوس، ص ١٠٨، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١١.

(٢) حسين نصار: المعجم العربي ص ٤٩٨.

(٣) حسين نصار: المعجم العربي ص ٥٩٧.

(٤) عبد القادر عبد الجليل: المدارس المعجمية، ص ٣٠٨.

سطوة آراء السيوطي والبغدادى على آراء المحدثين في قضية الاستشهاد بالشعر القديم

سطوة آراء السيوطي والبغدادى على آراء المحدثين في قضية الاستشهاد بالشعر القديم

للعالم الموسوعي الجماعة جلال الدين ~~جلال الدين~~ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) سطوة كبيرة على آراء الباحثين العرب المحدثين، سواء عن طريق النقل المباشر من مؤلفيه: المزهرة والافتراح، أو بواسطة عبد القادر بن عمر البغدادى (ت ١٠٩٣هـ) في مقدمة (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب)، بل قد يكتفي بعضهم بمن نقل عن البغدادى. ونقول (سطوة كبيرة)؛ لأن كثيراً من علمائنا المحدثين يأخذونها أخذ المسلمات فينبون عليها أحكاماً وقضايا، في حين أنها في حاجة إلى فحص في حد ذاتها. هل ترى بحثاً أو كتاباً عن المعاجم العربية، أو عن قضايا الإبدال والمغرب والدخيل والترادف والمشتراك والأضداد والمذكر والمؤنث والأبنية، وغير ذلك من قضايا البحث اللغوي، يخلو من الرجوع إلى كتابي السيوطي والنقل عنه بالصفحات؟ بل إن الكتب الدراسية التي حملت في عناوينها تركيب (فقه اللغة) أو (البحث اللغوي) وما شابه ذلك عندما تتناول موضوعاً ما فإنها ترتب مسائل ترتيب السيوطي. إضافة إلى أن الآخر من الباحثين ينقل عن سبقه، فالإبداع في هذه الكتب قليل جداً.

وبهنا هنا القضايا المتعلقة بالاستشهاد بالشعر القديم على قواعد النحو سواءً من حيث:

- القبائل التي احتج علماء العربية بلغتها .
- الشعراء المحتج بأشعارهم .
- انفراد الزمخشري باحتجائه بأشعار المولدين .

وسنكتفي هنا بمناقشة هذه القضايا لبيان هذه السطوة، لا على أننا سنأتي
بالقول الفصل الذي جاءت به حذام، بل على أنه رأينا الذي نعتقه صواباً .

(١)

كان الفيلسوف أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (ت ٣٣٩هـ) -
فيما نعتقد - أول من حاول التنظير لأعمال علماء العربية الأقدمين؛ ذلك أن
النحاة واللغويين لم يكونوا يذكرون في مقدمات أعمالهم الأسس المنهجية
والنظرية التي يسيرون عليها، سواء من حيث اختيار مادة الدراسة أو زمنها، أو
إجراءات التحليل^(١) . على أن الرواد من علماء العربية في القرن الثاني
الهجري رأوا في القرآن الكريم والشعر القديم - على تفاوت أسلوبيهما
وموضوعاتهما - لغةً معربةً واحدةً، وأحبوا الحصول على مادة جديدة من لغة
الحياة اليومية التي ما تزال معربةً، وتشبه ما في ذنك المصدرين، وبالتأكيد لا
يمكن استقاء هذه المادة من سكان المدن، سواء التي أنشئت بعد الفتح الإسلامية
خارج الجزيرة العربية كالبصرة والكوفة وواسط وبغداد، أو كانت مسكونة من
قبل كمكة والمدينة ودمشق؛ فالمدينة بطبعها تجمع سكاني يضم الأجناس
المختلفة عرباً وغير عرب، وهؤلاء يتفاعلون بعضهم مع بعض في شتى مناحي
الحياة، بحيث يكون صعباً جداً أن يستخرج عالم العربية منهم مستوى لغوياً
مطرداً يشبه ما في القرآن والشعر القديم. لذلك رأوا في لغة البدو - عامة -
المادة الفصيحة الحية التي تشبه المثال اللغوي المنشود الذي يُدرَس ويُقَنَّ ثم بعد
ذلك يمكن تعميمه .

ورأوا أن بُعد البدو النسبي عن الاختلاط بغيرهم هو الذي أبقى لغتهم
سليمة. وبالطبع فإن القبائل البدوية أيام هؤلاء الرواد ليست على مستوى واحد

(١) أرجو ألا يفهم من ذلك خلو تحليلاتهم من التنظير. انظر: محمد عبد العزيز عبد الدائم: النظرية اللغوية في التراث العربي. القاهرة: دار السلام ٢٠٠٦م، ص ١٤-٨٤ على سبيل المثال .

من حيث الفصاحة؛ فبعضها من الناحية الجغرافية يجاور شعوباً غير عربية من قديم، وبعضها نزح من موطنه الأصلي وسكن المدن وخالط أبناء لغات مختلفة. لذلك اقتصروا على قبائل بعينها رأوا لغتها سليمة .

فذكر الفارابي أن علماء العربية من أهل الكوفة والبصرة أخذوا «من سكان البراري منهم دون أهل الحضرة، ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم، ومن أشدهم توحشاً وجفاءً وأبعدهم إذعاناً وانقياداً، وهم: قيس وقيم وأسد وطيس ثم هذيل، فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب. والباقيون فلم يؤخذ عنهم شيء لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد الستهم للفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسرانيين وأهل الشام وأهل مصر»^(١) .

وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) كعادته في إخفاء مصادره يذكر أن أنصح اللغات قرش لبعدهم عن المعجم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد. وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بعدهم من قرش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية»^(٢) .

أما نص السيوطي الذي لم يبق دارس إلا نقله فهو: «والذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدى وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وقيم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه،

(١) الفارابي: كتاب الحروف، نجح محسن مهدي، بيروت: دار المشرق ١٤٧ . وأول من نقل نص الفارابي مباشرة المرحوم رمضان عبد التواب في كتابه: فصول في فقه العربية (٢٥)، القاهرة: مكتبة الحانجي ١٩٨٠م، ماضي (٧١)، وعلق إن نص الفارابي مختصر جداً. ونقول: ربما تصرف فيه السيوطي بالشرح، وربما كان طويلاً في كتاب آخر للفارابي. ونجد حاتم الضامن: فقه اللغة، جامعة بغداد ١٩٩٠م، ص ١٩ ينقل جميع كلام عبد التواب عن الفارابي على أنه صاحبه!

(٢) مقدمة ابن خلدون، القاهرة: دار الشعب، ص ٥٢٣، وطبعة مؤسسة الأعلمي بيروت ١٠٤٩ .

وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف. ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم؛ فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم؛ فإنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جذام... ولا من قُضاة وغسان وإياد... ولا من تغلب... ولا من بكر... ولا من عبد القيس وأزد عمان... ولا من أهل اليمن... ولا من ثقيف وأهل الطائف... ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادقوهم حين ابتدعوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم...^(١).

وواضح من استقراءنا لما وصل إلينا من تراثنا اللغوي من أيام سيبويه حتى الصبآن أن هذه القائمة صحيحة تماماً في جملتها، فهي تعني - كما أسلفنا - لغة الحياة اليومية أيام اللغويين الرواد. غير أن بعض الباحثين حين خلط بينها

(١) السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرح وضبط محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة عيسى الحلبي ١٩٥٨م ج١ / ٢١١-٢١٢، والاقتراح في علم أصول النحو، تح أحمد محمد قاسم، القاهرة: ط السعادة ١٩٧٦، ص ٥٦-٥٧. (وبعض من نقله كاملاً أو جزئياً) حسين نصار: المعجم العربي نشأته وتطوره (ط٢) القاهرة: مكتبة مصر ١٩٦٨ / ١٥، صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة (ط١٠) بيروت: العلم للملايين ١٩٨٣، ص ١١٢-١١٣، أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لفضية التأثير والتأثر (ط٧) القاهرة: عالم الكتب ١٩٩٧م، ص ٥١-٥٢، ونظام حسان: اللغة بين المياريّة والوصفية (ط٢) الدار البيضاء: دار الثقافة ١٩٨٠م ص ٢٧، ورمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية ص ١٠٣-١٠٤، ومحمد عيّد: الرواية والاستشهاد باللغة، القاهرة: عالم الكتب ١٩٧٦ ص ١٦٢-١٦٤، وسعيد الأفغاني: في أصول النحو، دمشق: دار الفكر ١٩٧١، ورشيد البيهقي: أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية، جامعة بغداد ١٩٨٨ ص ١٥٤، وخالد عبد الكريم جمعة: شواهد الشعر في كتاب سيبويه (ط٢)، القاهرة: الدار الشرقية ١٩٨٩، ومحمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري، بيروت: مكتبة الحياة ١٩٨٠ ص ٣٢٩، ٣٣٠، وأحمد محمد قدور: مدخل إلى فقه اللغة العربية (ط٢) دمشق: دار الفكر ١٩٩٣ ص ٧٣-٧٤، وعبد الحكيم راضي: التقد العربي وشعر المحدثين في العصر العباسي، القاهرة: دار الشايب ٢٥٣، ومسعود بوبوي: أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج، دمشق: وزارة الثقافة ١٩٨٢م، ص ٦٦. ومحمود عثمان أبو سمرة: الدراسة المياريّة في منهج النحاة العرب، ماجستير - كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ١٩٧٢، وعبد الحميد أحمد حماد: منهج النحاة العرب من خلال كتاب الاقتراح للبطوني، ماجستير - كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٧٣.

وبين القائمة الشعرية - التي ستأتي - استتج منها استنتاجات غير صحيحة في رأينا. فهي هو عبد الحكيم راضي يقول: «الدليل على أن التقدم الزمني لم يكن مقصوداً لذاته أن اللغويين الذين أشيع عنهم - خطأ - حب القديم والمعزوف عن الجديد رفضوا الاحتجاج بشعر قبائل بأكملها في الجاهلية»^(١). ونرى أن هذا وهمٌ بدليل أنه لم يذكر أحداً من هؤلاء الرافضين ولا سمي هذه القبائل.

وبعض الباحثين آمن بقائمة الفارابي/ السيوطي، لكنه ظن أن هذه القائمة القبلية المكآنية زمانية أيضاً تشمل الشعر القديم كله. فلماً نظر في الشعر الذي استخدمه إمام النحاة سيبويه (ت ١٨٠هـ) في بناء قواعد العربية الفصحى، وجد شعراء من كل القبائل العربية وليس مقصوراً على قبائل القائمة^(٢). كما وجد أنه يتنافي شرح السيوطي الذي عدّد القبائل المستبعدة من مجال الأخذ الميداني المباشر؛ فاستتج من ذلك أن سيبويه خرج على هذه القائمة (الموضوعة بعده والمستتجة من مجمل أعمال اللغويين الأوائل)؛ إذ أخذ من شعراء بكر وتغلب (٢٤ شاعراً) وشعراء عبد القيس (٤ شعراء)... إلخ، فالفارابي يذكر أنهم لم يأخذوا من قضاة ونجد سيبويه يستشهد بشعر تسعة منهم، والفارابي يذكر أنهم^(٣) لم يأخذوا من ثقيف وسيبويه يستشهد بأربعة منهم. وحاول أن يزيل التناقض الذي توهمه هو بأن علماء العربية «أخذوا أكثر اللغة عن قيس وتميم وأسد ولم يأخذوا عن غيرهم من القبائل. وهذا ما قاله أبو نصر في أول كلامه. قضاة وغسان وإباد لجاورتهم أهل الشام، ولا عن تغلب.. ولا عن بكر.. ولا عن ثقيف... وهذا الزعم لا يتفق مع ما نراه في موقف سيبويه»^(٤).

(١) عبد الحكيم راضي: التقد العربي وشعر للحديث، ص ٢٤٦.

(٢) خالد عبد الكريم جمعة: شواهد الشعر في كتاب سيبويه ص ٢٨٩، ٢٨٧، ٢٨١.

(٣) خالد عبد الكريم ٣٠٠ - ٣٠١.

(٤) خالد عبد الكريم ٣٠١.

ويحاول تفسير عبارة الفارابي بأن سيويوه وغيره أخذوا عن القبائل الست الشعر والثر (يقصد لغة الحياة) ولم يأخذوا عن القبائل الأخرى إلا الشعر فحسب لانتشاره في جزيرة العرب كلها^(١).

ونرى أنه قارب الحقيقة في آخر كلامه؛ فلو أنه قال: (إن الشعر قبل منتصف القرن الثاني لا مكان له ولا قبيلة، وكله يحتاج به) لأصاب كبد الحقيقة. وما يؤيد قولنا أن هذه القائمة الفارابية استتاج صحيح من مجمل أعمال علماء العربية، وأنها خاصة بلغة الحياة اليومية التي صادفوها حينذاك فنقلوها ودرسوها - قول الفارابي والسيوطي في آخر القائمة... ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوها حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم^(٢).

والحق ما ذكره محمد عبيد من أن منتصف القرن الثاني كان «مفترق الطريق بين عصرين لغويين متميزين: أحدهما هو ذلك المعاصر لمرحلة النشاط اللغوي هذه وواقعُه مشاهد حاصر، تغير فيه المجتمع الحضري وتبدل، ودخله - من وجهة نظرهم - الخلل والفساد في اللغة. فوجه العلماء جهودهم تبعاً لذلك لرواية اللغة عن هذا العصر الماضي، واعتبر كل ما ورد عنه ثقة يعتمد عليه في الاستشهاد، ورحل العلماء إلى البادية ملتجئين امتداد ذلك الماضي بين قبائل الأعراب الذين لم يمتد إليه التفسير الاجتماعي الهائل في الحضرة فبقوا في موضع التوثيق والصحة والسلامة»^(٣).

ويرى العلامة محمد حسن حسن جبل أن في كلام الفارابي عن النطاق القبلي المكاني «تعميمات غير دقيقة»^(٤)، وأن الأساس العلمي ينقصها «من

(١) خالد عبد الكريم ٣٠٦ - ٣٠٢.

(٢) الانتراح ٥٧، والمزهر ٢١٢.

(٣) محمد عبيد: الرواية والاستشهاد باللغة ص ١٠٧، ١٤٩.

(٤) محمد حسن حسن جبل: الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلائل، القاهرة: الفكر العربي ١٩٨٦ ص ٧٧.

حيث المنهج لعدم قيامها على استقراء علمي^(١) فراح يمثل - دون استقصاء - لشعراء من القبائل المستبعدة لهم شواهد في (لسان العرب) الجامع للصباح والنهذيب والمحكم والنهاية وتحقيقات ابن بري^(٢)، فمن قضاة وعلة الجرمي له ستة أبيات وعبد الله بن العجلان النهدي وشقران مولى سلامان. ومن غسان عدي بن الرعلاء وعبد المسيح بن نفيلة والخرع بن سنان (ص ١٠٦). ومن إياد الحارث بن دوس ولقيط بن يعمر وأبو داود. ومن تغلب الأخنس بن شهاب وأفتون. والأخطل الذي له أربعة أبيات وثلاثمائة بيت. ومن حنيفة... ومن ثقف... (ص ١٠٦). ثم مضى يمثل لشعراء الحواضر (ص ١٠٧-١٠٨).

ونرى أنه قد عنى نفسه بسبب الخلط بين المكان والزمان، فتوهم التناقض في حين لا تناقض كما قدمنا .

(٢)

من أعمال علماء العربية نستنتج أن الشعر القديم زمنه واحد لا غير، هذا الزمن يمتد من الجاهلية حتى منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً، ولكن نقل السيوطي لفقرات من العمدة لابن رشيقي (ت ٤٥٦هـ) وهذا بدوره نقلها عن السابقين كابن سلام الجمحي (٢٣١هـ) وابن قتيبة (٢٧٦هـ) في سياق مختلف، جعل الباحثين المحدثين ينقلونها عن السيوطي والبغدادى على أنها من عمل اللغويين: «طبقات الشعراء أربع: جاهلي قديم، ومخضرم - وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام - وإسلامي، ومحدث. ثم صار المحدثون طبقات؛ أولى وثانية، على التدرج هكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا»^(٣) وفي موضع آخر ينقل عن العمدة «كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان

(١) الاحتجاج بالشعر ٩٩.

(٢) نفسه ص ١٠٥ وسنذكر الصفحات في المتن تخفيفاً.

(٣) المزهر ٨ / ٤٨٩، وقارن بـ ابن رشيقي الفيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، نج محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: ط السعادة ١٩٦٣ ج ١ - ١١٣.

قبله. وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد حسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته. يعني بذلك شعر جرير والفرزدق، فجعله مولداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين، قال الأصمعي: جلست إليه عشر حجج فما سمعته يحتج بيت إسلامي^(١).

وقد جمع البغدادي ذلك كله فقال: «الكلام الذي يستشهد به نوعان: شعر... وغيره. ففانل الأول قد قسمه العلماء على طبقات أربع: الطبقة الأولى: الشعراء الجاهليون. وهم قبل الإسلام كامرئ القيس والأعشى.

الثانية: المخضرمون، وهم الذين أدركو الجاهلية والإسلام كليد وحسان. الثالثة: المتقدمون - ويقال لهم: الإسلاميون - وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير والفرزدق.

الرابعة: المولدون - ويقال لهم: المحدثون - وهم من بعدهم إلى زماننا كشار بن برد وأبي نواس.

فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجمالاً. وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها. وقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق (...) يلحنون الفرزدق والكميت وأضرابهم (...) لأنهم كانوا في عصرهم، والمعاصرة حجاب. قال ابن رشيقي في العمدة: كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه (...) وكان أبو عمرو يقول: لقد أحسن هذا المولد حتى لقد هممت أن آمر صبياننا (...) قال الأصمعي: جلست إليه عشر حجج فما سمعته يحتج بيت إسلامي.

وأما الرابعة: فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً....^(٢)

(١) المزهري ٤٨٨ / ١، وقارن بالعمدة ٩٠ / ١ وبخاشية ابن المنير على الكشف ج١ / ٢٢١.

(٢) عبد القادر بن عمر البغدادي: خزنة الأدب، تع. عبد السلام محمد هارون (٢٥)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م ج١ / ٥-٦ ونقله حرفياً أو يكاد: محمود شكري الألويسي: إلخاف الأبعاد فيما يصح به الاستشهاد، تع. هيدنان عبد الرحمن الدوري، بغداد: وزارة الأوقاف ١٩٨٢، ص ٦٤-٦٩، وسباني مثل ذلك عند أبناء القرن العشرين الميلادي.

تقسيم الشعراء إلى طبقات بدأه - فيما نعلم - محمد بن سلام الجمحي، عندما قسم الشعراء إلى جاهليين وإسلاميين، وقسم الفريقين إلى طبقات، ثم قسم شعراء آخرين إلى شعراء القرى، وشعراء المراتي. وكلاً وضع في طبقات، ثم سار المؤلفون على هذه السنة. غير أن المتأمل في الصياغة النهائية للبغدادى يجد أنه قد نقل كلام السابقين - ابن رشيقي وابن قتيبة وغيرهم - من مجال الأدب إلى مجال الاحتجاج اللغوي وخلط بين الأمرين. وواقع الأمر - التأليف في النحو - أن الطبقة المحتج بأشعارها إنما هي طبقة زمنية واحدة تشمل الطبقات الأولى والثانية والثالثة عنده .

وفي جعلها أربع طبقات تكثر. وستحول جملة (قسمه العلماء) عند المحدثين إلى قسمه اللغويين، أو (قسم اللغويين الشعراء إلى أربع طبقات)^(١)، ثم نقل كلام البغدادى برمته أو نقله مع الإشارة إلى ابن رشيقي. بل سباني في رسائل جامعية (قسم النحاة الشعراء). ونحن نتحدى الجميع أن يأتونا بنحوي واحد قسم الشعراء هذه القسمة أو ذكر ذلك في صدر كتابه .

كما أن الأخبار التي دخلت ضمن الطبقات الثلاث الأولى، وكانت تتحدث عن رأي بعض العلماء الأفراد في شعر شاعر معين، جعلت كثيراً من المحدثين يعم حكم هذا العالم على جميع التراث النحوي واللغوي. والعجيب أن بعض هؤلاء ممن أفنى عمره في درس النحو القديم وتدرسه. وإليك أمثلة:

ذهب المرحوم سعيد الأفغاني أن الأمر في الزمان التعويل على سلامة لغة المحتج به وعدم تطرق الفساد إليها. ولذلك نرى إسقاط اللغويين الاحتجاج بشعر أمية بن أبي الصلت، وعدي بن زيد العبادي، وحتى الأعشى عند

(١) انظر مثلاً: أحمد محمد قدور: مدخل ٧٦، ورمضان عبد التواب: فصول في نقه العربية ص ١٠١، وحاتم صالح الضامن: فقه اللغة ١٧-١٨، وأحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب ٤٦-٤٨، ومسعود بوبو: أثر الدخيل على العربية الفصحى ٥٩. ورجب عبد الجواد إبراهيم: دراسات في الدلالة والمعجم، القاهرة: مكتبة الآداب ٢٠٠٦ ص ١٤٩.

بعضهم، لمخالطتهم الأجانب وتأثر لغتهم بهذه المخالطة، مع أن هؤلاء شعراء جاهليون^(١).

قال المرحوم عباس حسن (ت ١٩٧٩م) إن العربي الأصيل عند اللغويين القدماء «قد يفقد أصالته اللغوية بسكنى الحضرة وبمخالطة الأعاجم (...) وهذه العلة هي التي جرحوا بها بعض شعراء الجاهلية الأعلام، كمعدي والأعشى ولم تأخذهم بهما وبأضرابهما رافة»^(٢) (!!).

نسي الدكتور محمد عبيد كلامه (في ص ١٠٧ من كتابه) عن منتصف القرن الثاني الهجري، فقال: إن أحد عشر شاعراً من عصر الاحتجاج رفض العلماء «شعرهم ولم يسمحوا له بدخول مجال الدراسة»^(٣) !! وهم عدي بن زيد العبادي وأمية بن أبي الصلت وأبو دؤاد الإيادي وابن أحمر الباهلي والخطيشة (!) وابن الرقيات والفرزدق وذو الرمة والكميت والقحيف العقيلي والطرمات.

رأى المرحوم مسعود بويو (ت ٢٠٠٠م) الإجماع على الطبقات الأربع مع تحفظ عن شعر أبي دؤاد وأمية وعدي بن زيد، على أن إمام النحو سيبويه كان يستشهد هؤلاء جميعاً خلافاً للأصمعي^(٤).

ونقول: إن سيبويه أقدم، وما فعله سار على دربه كل النحاة الخالفون، أما الأصمعي فمتى كان نحوياً أصلاً؟!

اضطرب الدكتور عبد الحكيم راضي^(٥)، وهو في صدد الدفاع عن نقاد شعر المحدثين في العصر العباسي، فركب كل ذلول وصعب ليفسر هجومهم

(١) سعيد الأفغاني: في أصول النحو ٢٥، وتيمه أحمد محمد قدور: مدخل ٧٦.

(٢) عباس حسن: اللغة والنحو ١٢٨.

(٣) محمد عبيد: الرواية والاستشهاد ١٦٧-١١١، وكرر ذلك في ٢٦٩.

(٤) مسعود بويو: أثر الدخيل على العربية الفصحى ٦٠-٦٦، ونقل نفس الأقاويل عن عدي وأمية وذو الرمة.

(٥) عبد الحكيم راضي: النقد العربي وشعر المحدثين في العصر العباسي.

على الجديد ويسوغه لغوياً. وقد مرّ بنا قبل زعمه أن اللغويين (وهم النقاد أيضاً) رفضوا أشعار قبائل بأكملها في الجاهلية. فاتكأ على فكرة النقد والبعد عن المؤثرات الأجنبية فقال:

(في ص ٧٦) هناك على الأقل ثلاثة شعراء هم: أمية بن أبي الصلت وهو جاهلي، والظرمّاح بن حكيم والكميت بن زيد وهم إسلاميان، ولم يستشهد اللغويون بأشعارهم، بل رفضوها كما رفضوا شعر عدي وأبي داود (كرر المقولة في ص ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٣٩).

(في ص ٢٣٠) بفصل الاعتبارات المكانية للرفض؛ من السكنى في الريف ومخالطة أهل السواد والجرامقة، واعتبار ثقافي خاص باعتناق النصرانية أو قراءة كتب أهل الكتاب، وتعلم النحو (بالنسبة للكميت) وتعلم الكتابة عند ذي الرمة .
(في ص ٢٣٥) يعلل بأن أصل الشاعر لا يؤثر إذا توفر له البيئة اللغوية النقية البعيدة عن كل المؤثرات الأجنبية (وكرر ذلك في ٢٣٦، ٢٣٧) .

نقل (ص ٢٣٠) عن الموشح عن أبي عمرو بن العلاء أنه رأى الظرمّاح بسواد الكوفة وهو يكتب ألفاظ النبط ليدخلها في شعره!

ولسنا في صدد رد هذه الأقوال قولاً قولاً، بل إننا نراها غير صحيحة البتة. وما وقع فيه راضي وغيره إنما هو نتيجة سطوة أفكار السيوطي والبغدادي عليهم جميعاً. غير أننا سنتوقف عند الخبر الأخير الذي لا يعقل. فكيف يعمد شاعر عربي إلى كتابة ألفاظ أعجمية؟ الأصوب أن يكتب ألفاظاً عربية. ثم ألا يفترض في تمحيص الخبر الرجوع إلى ديوان الشاعر نفسه، للفتيش عن هذه الألفاظ النبطية؟ لم يفعل ذلك أحد منهم. وقد ذكر محقق الديوان هذا الخبر المتناقل ومحضه، فوجده محض هراء^(١). إذ ليس في الديوان ألفاظ نبطية إطلاقاً.

(١) ديوان الظرمّاح بن حكيم الطائي، لمحقق الدكتور حمزة حسن، دمشق: للجمع العلمي العربي ١٩٦٨ م - مقدمة المحقق .

وبعد ما مرّ بنا من أقوال تجزم بإخراج بعض شعراء عصر الاحتجاج من الاحتجاج، لا نجد أفضل من كتاب سيبويه حكماً في هذه القضية. وسنرجع إلى كتاب خالد عبد الكريم جمعة «شواهد الشعر في كتاب سيبويه» وأرقام الصفحات تشير إليه. ومن شاء التأكد من سيبويه نفسه فليقارن بينهما، وسيجد ما قاله ابن جمعة حقاً:

- لأمية بن أبي الصلت في كتاب سيبويه ثمانية شواهد. (ص ٢٧٨).
- لأبي ذؤاد الإيادي شاهد واحد (ص ٢٩٠).
- لعدي بن زيد العبادي ثمانية شواهد (ص ٢٧٦).
- للأعشى الكبير ميمون بن قيس خمسة وثلاثون شاهداً (ص ٢٨١-٢٨٢).
- لعمر بن أحمد الباهلي سبعة شواهد (ص ٢٩٠).
- للحطيئة سبعة شواهد (ص ٢٨٥).
- للطرمّاح بن حكيم ثلاثة شواهد (ص ٢٩٤).
- للحكيم بن زيد سبعة شواهد (ص ٢٨٤).
- لذي الرمة ثمانية وعشرون شاهداً (ص ٢٨٨).
- وللفرزدق ستة وخمسون شاهداً (ص ٢٧٧).
- ولعبد الله بن قيس الرقيات خمسة شواهد (ص ٢٨٧).
- وللقحيف العقيلي شاهد واحد (ص ٢٨٠).

وكتب النحو بعد سيبويه مطبوعة ومحققة ومفهرسة، والنظر في واحد منها يعزز كلامنا.

ثم ننظر في أكبر المعاجم العربية أعني (لسان العرب) لابن منظور فنجد فيه:^(١)
٩٤ بيتاً في أكثر من ٩٠ موضعاً لأمية بن أبي الصلت (ص ١٠٦).

(١) أرقام الصفحات لكتاب محمد حسن حسن جيل: الاحتجاج بالشعر في اللغة، وهو قد رجع إلى كتاب ياسين الأيوبي معجم الشعراء في لسان العرب. والأمر على القارئ أهون من قبل مع وجود الاسطوانات المضغوطة للتأكد من النتائج.

١٣٦ بيتاً في أكثر من مائة تركيب لأبي ذؤاد الإيادي (ص ١٠٦-١٠٧) .

٢٠٠ بيت لعدي بن زيد العبادي (ص ١٠٧) .

٣١٥ بيتاً للطرماح بن حكيم (ص ١٠٧) .

٥٠٠ بيت للكُميت بن زيد (ص ١٠٧) .

أكثر من ألف بيت لذي الرمة، غيلان بن عُقبة (ص ١٠٧) .

ونترك للقارئ الكريم البحث عن بقية (المستبعدين) الذين رفضهم اللغويون ولم يسمحوا لشعرهم بالدخول في مجال الدراسة!! والعجيب أن العلامة عبد الفتاح سليم قد قلب الهرم رأساً على عقب، فجعل الأصمعي - الذي يعد شاداً على جمهور اللغويين - هو المقياس، فصاحبنا يقول: «لكن الغريب الذي لم يكن متوقعاً من ابن قتيبة أن وجدناه يخرج عن هذا المسلك الأصمعي، فيحتج بأشعار للكُميت ولذي الرمة والطرماح (...) في معاني اللغة وألفاظها (...) [وفي موضع آخر يقول عن الفراء] وبخالفته لبعض آراء الأصمعي نضيف إليه مقياسه السابق أنه كان يرى توسعة مجال الاستشهاد بالاحتجاج بأشعار المولدين كالكميت»^(١) .

(٣)

أطواة جاز الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) عالم متعدد الاهتمامات، فهو أديب مبدع له المقامات المعروفة به (أطباق الذهب)، فهي من إنتاجه الأدبي وينبغي أن ينظر إليها هكذا. ثم هو معجمي يجمع في (الفائق) الألفاظ الواردة في كلام النبي ﷺ والصحابة وبعض التابعين ويفسرها. ويجمع التعابير الاصطلاحية والعبارات البليغة أنى وجدها في (الأساس). وهو في (المفصل) نحوي يسير على تقاليد الكتابة في تأليف كتاب نحوي، وإن

(١) عبد الفتاح سليم: اللحن في اللغة مقاهره ومقاييسه. القاهرة: دار المعارف ١٩٨٩. ص ٨٢.٥ على التوالي

ذهب مذهباً جديداً في تقسيمه للكتاب. وبعد ذلك هو مفسر للقرآن الكريم ذو اتجاه بلاغي. ويجب أن ننظر إليه في كل حالة في سياق تقاليد الكتابة في المجال المعين.

وكتب التفسير القديمة - وما أكثرها! - ربما كانت أدل على التنوع، فالأغلبية غالب على كل مفسر إنما هو غالب نسيباً وليس مطلقاً. فإذا كانت عناية الطبري في (جامع البيان) منصرفة إلى التفسير بالمأثور عن الصحابة أو التابعين القميين أو عن أهل الكتاب تلصق بواحد من القبلتين، فإن تفسيره لم يخل من عناية بالنحو في مواضع ليست قليلة، ولم يخل من اهتمام ببعض أوجه البلاغة أو أحكام الفقه أو القراءات. كذلك كانت عناية القرطبي في (الجامع) بمسائل الفقه كبيرة، لكنه لم يخل من اهتمام بالجوانب الأخرى. وقل مثل ذلك عن تفسير (البحر المحيط) لأبي حيان الغرناطي، إذ يغلب عليه الاهتمام بمسائل النحو والصرف والقراءات وإن لم يخل من اهتمامات أخرى. وقل مثل ذلك عن تفسير (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)^(١). فقد كانت عنايته منصرفة إلى وجوه البلاغة في آي الله عز وجل، مصبغة بآراء المعتزلة في المواطن التي يرى أن حملها على مقتضى الظاهر قد يعني المساس بتنزيهه الله تعالى، فيؤولها اعتماداً على أساليب البلاغة في لغة العرب. لكن ذلك لا يعني أنه أهمل الجوانب الأخرى، فهناك مواطن تستحق وقفة طبية. وبعضها يستحق الاستفادة من التشريع، وبعضها يشير إلى الذكوة لاستدعاء ما يشبه المعنى أو اللفظ. أي أن الكشاف ليس كتاب نحو تعليمي أو نحو نظري

(١) اخترنا هذه الطبعة القاهرة الصادرة عن مكتبة مصطفى الحلبي ١٩٤٨م التي طبع معها:

أ - حاشية السيد الشريف الحرجاني ب - الإنصاف في ما تضمنه الكشاف من الاعتزال لأحمد بن محمد بن شبيب المالكي الإسكندري.

ج - تنزيل الآيات على الشواهد من الآيات لمحب الدين أفندي. وستنصرها (بالكشاف) مشيرين إلى هذه الحواشي باسم مؤلفها

لنحاكمه وفق تقاليد التأليف النحوي، فالتأليف كتاب نحو أصوله المرعبة من حيث المصطلحات والشواهد المشابهة التي قد تقل أو تزيد من كتاب إلى آخر. غير أن أغلب - أحشى أن أقول كل - المؤلفين عن الدراسات اللغوية والنحوية عند القدماء يغفلون السمة الرئيسية للكشاف ويجرون عليه أحكاماً هي هي لم تتغير من أيام السيوطي ثم البغدادي. والذي يهمنا هنا قولهم: إن الزمخشري يحتج بأشعار المولدين، وقد احتج بيت لأبي تمام في الكشاف... إلخ. ولتحرير هذه المسألة حرت في أمري؛ أنقل كلام السيوطي ثم البغدادي، ثم الذين نقلوا كلام أحدهما أو كليهما^(١)؟ ثم أعود إلى الكشاف وحواشيه فأفسر الأمر اعتماداً على المقدمة التي أوردت. إن هذا يتطلب أربع صفحات أو خمساً. أم أبدأ بالكشاف نفسه ثم بحواشيه مطلقاً الحكم الأخير؟ رأيت أن الطريقة الثانية أفضل.

في أثناء تفسيره الآية العشرين من سورة البقرة «كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا». «وأظلم»: يحتمل أن يكون غير متعمد وهو الظاهر، وأن يكون متعمداً منقولاً من ظلم الليل، وتشهد له قراءة يزيد بن قتيب (أظلم) على ما لم يسم فاعله.

وجاء في شعر حبيب بن أوس:

هما أظلما حالياً ثمت أجلياً ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء اللغة، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. ألا ترى إلى قول العلماء: (الدليل عليه بيت الحماسة) فيقتنعون بذلك لو ثوقهم بروايته وإتقانه!!^(٢).

(١) انظر مثلاً: محمود شكوي الألويسي: إنحاف الأمجاد ٦٩-٧٤، وأحمد مختار عمر: البحث اللغوي

٤٨-٤٩، وأحمد محمد قدور: مدخل إلى فقه اللغة ٧٦، ورمضان عبد التواب: فصول ١٠٢-١٠٣.

وحاتم الضامن: فقه اللغة ١٨، ورجب عبد الجواد: دراسات في التمجيد ١٥٠.

(٢) الكشاف ١ / ٢٢٠-٢٢١.

هذا التصريح الذي أقام علماء اللغة وأقدمهم، فحملوه فوق ما يحتمل،
دعنا ننظر في (موضع الاستشهاد) .

أولاً: وبداية لا يستشهد على لفظ أو تركيب إلا بما كان من جنسه أو
يشبهه، والفعل في الآية لازم في حين أنه متعد في قول أبي تمام، فأين
الاستشهاد المزعوم؟

ثانياً: تصريح الزمخشري أن الشاعر محدث لا يستشهد شعره... إلخ
منفصل عن موضع الشاهد.

ثالثاً: ينبغي أن يبحث الاحتجاج بأقوال الشاعر في كتاب خالص للدراسة
النحوية. فهل فعل الذين ظلوا يتناقلون كلام السيوطي والبغدادى؟ كلا.
رابعاً: هذا التصريح بمكانة أبي تمام في الرواية، هل التزم به الزمخشري في
تأليفه النحوي؟

نوجل القول في التساؤل الأخير، وننظر في حواشي الكشف. ذكر
الشريف الجرجاني الطبقات الأربع، وأنه يحتج بأشعار الثلاث الأولى، أما
المحدثون كأبي تمام والبحتري وأبي الطيب «فلا استشهاد بأشعارهم إلا على
الوجه الذي ذكره وهو أن يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه»^(١) ويعقب ابن المنير:
«واعترض عليه بأن قبول الرواية مبني على الضبط والثوق، واعتبار القول
والاستشهاد به مبني على معرفة الأوضاع اللغوية والإحاطة بقوانينها. ومن
البيان أن إتقان الرواية لا يستلزم إتقان الدراية، فلا يلزم من تصديق العلماء إياه
فيما جمعه من الحماسة من أشعار من يستشهد بأقوالهم أن يكون جميع شعره
سموعاً منهم أو مستنبطاً من القوانين المأخوذة من استعمالهم»^(٢) .

(١) الكشف ١ - ٢٦. حاشية الشريف .

(٢) الكشف ١ - ٢٦. حاشية ابن النبر. وهذا أصل ما جاء في الاقتراح ٧٠، والخزائفة ١ / ٦ - ٨، ومصطفى
العساري الجنوبي: منهج الزمخشري في تفسير القرآن. القاهرة: دار المعارف ١٩٦٨م، ص ١٦٥، وقاضى
صالح السامرائي: الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري. بغداد: ط الإرشاد ١٩٧١م ص ١٩٠، ومن
ذكرناه في الحاشية (٤٤٣) وبقي في الخزائفة رفض التفازاتي أن يكون بمنزلة نقل الحديث بالمعنى.

أما العالم الجليل فاضل السمراني فقد توفر على الأعمال النحوية واللغوية عند الزمخشري، وكان لا بد له من التعرض لقضية استشهاد الزمخشري بشعر أبي تمام خاصة والمولدين عامة؛ فكان لما ورد عند السيوطي والبغدادى سطوة غير منكورة على أحكامه. إذ وافقهم عليها دون أن يتأمل الكافي في كل صنف من أصناف التأليف عند الرجل وينزله منزلته الصحيحة. وإليك بعض بيان:

أولاً: يذكر أنه استشهد (في مقاماته) ! بقول البحري: «جرى الوادي فطمَّ على القرى»^(١)، واستشهد بقول أبي تمام: «السواد الأعظم»^(٢)، وبأبي تمام في قوله: «ذات الله»^(٣)، وبقول الرومي: «المستشف»^(٤).

وهنا نساءل كيف يمكن لعمل إبداعي مثل المقامات، وليست عملاً نحوياً بالتأكيد، أن توصف أجزاء النصوص التي تدخل في نسجها بأنها استشهاد؟

ثانياً: يذكر أنه «كان يستأنس ويستشهد بأشعار علماء العربية من المولدين من لا يحتج بشعرهم من أمثال: أبي تمام والمتني والبحري، بحيث يبدو ذلك سمة بارزة في بحوثه، ولا يصنع ذلك مع سائر المولدين»^(٥) لكنه لم يورد شاهداً واحداً من (المفصل) يؤيد كلامه، وكل ما أورده إما من المقامات (!) أو الكشف.

ثالثاً: في (الكشاف) أشعار كثيرة لغير هؤلاء المولدين الثلاثة، ولا يذكر في سياقتها إنكار ولا تأييد. فالكشاف - كما قلنا - تفسير، والتفسير تحوي موضوعات كثيرة. فهل إيرادها (استشهاد). خذ عندك (على سبيل التمثيل لا الحصر):

ثلاثة أبيات في وصف البعوضة^(٦).

-
- (١) فاضل صالح السمراني: الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ١٨٨. وانظر: الزمخشري أضواء الذهب (مقامات الزمخشري)، القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح ٤٢
- (٢) فاضل السمراني ١٨٨، ومقامات الزمخشري ١١٧
- (٣) فاضل السمراني ١٨٩، ومقامات الزمخشري ١٢٤
- (٤) فاضل السمراني ١٨٩، ومقامات الزمخشري ١٣٨
- (٥) فاضل السمراني: ١٩١.
- (٦) الكشف ١/ ٢٦٥. وقال محب الدين أقندي ٤ / ٤٧٦ إنها للزمخشري نفسه.

و بيتين

للمأمون بن الرشيد^(١) ولبعض البدويات^(٢) ولبعض العدلية^(٣) وبتين في أهل البدع لمجهول^(٤)، ولأبي العلاء المعري^(٥)، ولبعض المحدثين^(٦).

ونأتي إلى التساؤل الذي قدمناه: هل التزم الزمخشري بهذا التصريح الناري عن أبي تمام في كتابه النحوي (المفصل في صناعة الإعراب)؟ سنستشير السامرائي الذي يفترض فيه أن يكون قد محص هذه المسألة؛ فيقول لنا: «استشهد في (المفصل) باثنين وأربعين ومائتي شاهد شعري، فيها أكثر من سبعين ومائة شاهد مجهول القائل ومختلف في نسبه إلى صاحبه» ولم يرد ذكر لأبي تمام! مما يدل على أنه تصريح لم يطبقه، كما لم يذكر أخرج صاحبنا عن عصر الاستشهاد في شواهد المفصل أو لم يخرج؟ واقع الأمر أن صاحب (المفصل) لم يخرج عن عصر الاحتجاج حتى في الشواهد المجهولة القائل؛ ذلك أن أكثرها موجود عند سابقي الزمخشري من النحاة، وقد عُرِف معظم قائلها. فهو من هذه الناحية نحوي محافظ.

وإذن تسقط أسطورة استشهاد الزمخشري بشعر أبي تمام.

ويُفرد جيل الباب السابع^(٧) من كتابه لذكر الأئمة الذين احتجوا بشعر المولدين في متن اللغة أو النحو، فإذا تأملت ما أورده رأيتها حالات فردية، ووجدت بعضها يتكرر، مما يجعلك تؤمن بما قاله محمد عبيد عن فكرة الزمخشري رغم تطبيق الرضى الاسترأبادي (٦٨٦هـ) لها إنها ظلت فكرة نظرية «ولم تؤثر في العرف المتوارث (...)» فما الذي يعنيه الاستشهاد بعدة أبيات لأبي تمام أو المتنبي في حديث عارض للزمخشري أو الرضى مع تلك الثروة الهائلة من مادة اللغة التي أنتجها الشعراء الذين انصرف عنهم علماء اللغة؟^(٨)

(١) الكشف ١ / ٣٣٩.

(١١) الكشف ١ / ٣٧٠.

(٢) الكشف ٢ / ١١٦.

(٣) الكشف ٢ / ١١٦.

(٤) الكشف ١ / ١٩٩.

(٥) الكشف ٤ / ٥٧، ٢٠٤.

(٦) محمد حسن حسن جيل: الاحتجاج بالشعر ١١٩ - ٢١٣.

(٧) محمد عبيد الرواية والاستشهاد ١٥٨ وإلى مثل ذلك ذهب عبد الله بن حمد الحنّان: مراحل تطور الدرس

النحوي. الإسكندرية: المعرفة الجامعية ١٩٩٣م، ص ٢٠٢ - ٢٠٤.

فصحاء من الجاهلية حتى القرن الثالث عشر بعد الهجرة

فصحاء من الجاهلية حتى القرن الثالث عشر بعد الهجرة

(١)

من الحق الاعتراف أن هذه الأسطورة أقل انتشاراً بين اللغويين العرب المحدثين من الأساطير السابقة لكنها موجودة على كل حال عند علماء محترمين، مدققين أحياناً، وفي هذه غير مدققين. مفاد الأسطورة: أن قوماً من اليمن ظلوا محافظين على لغتهم العربية الفصحى المعربة من الجاهلية طوال القرون، ويزداد العجب أنهم يسكنون منطقة قرر اللغويون القدامى عدم فصاحتها! فهل بنا أيها القارئ الكريم لنبدأ بتتبعها منذ بدايتها التي لا يعرفها المحدثون.

بدأت بالشاعر عمارة بن علي بن زيدان الحكمي اليمني (٥١٥-٥٦٩هـ)، المولود في إحدى مناطق تهامة باليمن، والوافد إلى مصر عام ٥٥٠هـ أيام الفاطميين، فكان ممن مدحهم وزراءهم وعمالهم وحلفاءهم، ثم عاد إلى الحجاز فاليمن، وبعد ذلك عاد إلى مصر ثانية عام ٥٥٢هـ فاستوطن ديار مصر نهائياً بقية حياته إلى مقتله بداية العهد الأيوبي بتهمة تدبير مؤامرة لإعادة الخلافة الفاطمية^(١). وقد ترجم لنفسه ولأسرته في كتابيه: تاريخ اليمن، والنكت العصرية، وإليهما سنشير بالعنوان مختصراً^(٢).

قال في تاريخه (سنقسم ما يهمنا منه إلى أرقام):

١٥- (...) الزرائب من أعمال ابن طرف وهو الوطن الذي ولدت فيه (...).

(١) انظر في تفصيل ذلك، ذو النون المصري: عمارة اليمني، القاهرة: النهضة المصرية ١٩٦٦م، ص ٢٦، ٤٢.

٤٦، ٤٧. والكتاب أصله رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٤٠م

(٢) عمارة بن علي اليمني: تاريخ اليمن المسمى: المقيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق (*) محمد بن علي الأكوع، القاهرة ١٣٨٥هـ. (وهي سطو على طبعة الإنكليزي كأي. وتزيد عليها بالشرثرة الظونية في الحواشي). النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تحقيق: هرتويغ دربنورغ، شالون: مطبع مرسو

١٨٧٩م.

٢- وجبل عكاد فوق مدينة الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم .

٣- ولم تتغير لغتهم؛ بحكم أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة في مناكحة ولا مساكنة . وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه .

٥- ولقد أذكر أنني دخلت زبيد في سنة ثلاثين وخمسمائة أطلب الفقه وأنا يومئذ دون العشرين، فكان الفقهاء في جميع المدارس يتعجبون من كوني لا ألحن بشيء من الكلام. فأقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي بالله القدير: لقد قرأ هذا الصبي في النحو قراءة كثيرة. فلما طالت المدة والخلطة ببني وبينه صرت إذا لقيته يقول: مرحباً بمن حثت في يميني لأجله!

٥- ولما زارني والدي وستة من إخواني إلى زبيد أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم، فلا والله ما ألحن أحدهم لحنة واحدة أثبتوها عليه!«^(١) .

ويقول في النكت المصرية:

١٥- وأما الوطن فمن تهامة باليمن مدينة يقال لها: مرطانة من وادي وساع، وبُعدها من مكة في مهب الجنوب أحد عشر يوماً، وبها المولد والمري.

٢- وأهلها بقية العرب في تهامة؛ لأنهم لا يساكنهم حضري، ولا يناكحونه، ولا يجيزون شهادته، ولا يرضون بقتله قوداً بأحد منهم. ولذلك سلمت لغتهم من الفساد. (!)«^(٢) .

ونلاحظ على النصين ما يلي:

أولاً: غلبة روح المغالبة التي توصل إلى الكذب .

(١) تاريخ اليمن لعمارة، ص ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) النكت المصرية ٧ . وانظر في التوفيق بين أسماء الأماكن المتعددة محاولة ذو التون المصري: عمارة اليمن، ص ٢٧ حيث جعلها من قبيل العام والخاص.

ثانيًا: إن قوماً هذا شأنهم في الفصاحة، موجودين في وسط غير فصيح من كل جانب لابد أن تكون فصاحتهم قد طبقت الآفاق شهرةً، لا في القرن السادس فحسب، بل في القرون السابقة على السادس. ولكانوا محجة لكل طالبي اللغة، لكننا نسمع عنهم أول مرة عند صاحبنا وحده .

ثالثًا: هناك لغويون لهم علاقة باليمن إما استيطاناً أو رحلة كابن دريد في القرن الثالث، والفارابي صاحب ديوان الأدب في الرابع، والرعي في الخامس. ثم نشوان الحميري في السادس، والصفاني في السابع، وهؤلاء جميعاً لم يشيروا بشيء إلى هؤلاء القوم المعجزة .

رابعًا: من الواضح - إذا جارينا الشاعر في زعمه - أن قومه - وأسرته أيضاً - عندهم حساسية لغوية، تنقاصر دونها حساسية أعضاء الأكاديمية الفرنسية في القرن العشرين الميلادي.

خامسًا: هؤلاء القوم عنصريون لا يختلطون بغيرهم في كل الأحوال التي تستدعي اجتماع البشر بعضهم ببعض، أعني: الزواج والجوار والسكن .

سادسًا: لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الضحك عند قراءة قوله عن الغريب: «... ولا يجيزون شهادته ولا يرضون بقتله قوداً بأحد منهم. ولذلك سلمت لغتهم من الفساد». فإذا كانوا متعزلين متوحشين خائفين على لغتهم، فكيف يحدث الاحتياج إلى شهادة الغريب؟ ناهيك عن أن أحداً سيقتل فرداً منهم عامداً ليقصص منه؟ ولا أدري كيف ستحدث حادثة قتل للغتهم!

سابعًا: هؤلاء القوم قد وصلوا إلى مرحلة من الاكتفاء الذاتي لم تصلها جمهورية الصين الشعبية أيام ماوتسي تونغ .

ثامنًا: لغة عمارة النثرية لا تؤيد زعمه، فهي ركيكة إذا قيسَت بِلغة الطبري أو عز الدين بن الأثير .

تاسعًا: بعض ما أورده من قصص عن قومه، وفيه جانب من لغتهم، ينفي هذه الفصاحة، فمن ذلك ما أورده عن رجل يحاكم زوجته أمام عمه، وكيف

أن الرجل زعم أنه أفضل من المرأة، فلما سألت عن السبب قال: لأنني أبول
 نيك. فردت عليه: «إنما فخرتَ باستين يلتقيان واستك أول منهزم فيهما»^(١)
 ويمكن الرجوع إلى المعاجم القديمة مادة (است) للنظر في هذه الفصاحة!

(٢)

وبقي أن نسأل: ما دافع عمارة إلى هذا الزعم بفصاحته وفصاحة أسرته ثم
 أهل موطنه؟ والجواب أن الرجل نشأ في موطن فقير زراعياً، مجذب في أغلب
 الأصوام، يعيش أهله في مستوى الكفاف أو أدنى. فانتقل إلي مصر حاضرة
 الخلافة الفاطمية، فبهرته مظاهر الحضارة في شتى مناحي الحياة، ناهيك عن نهر
 النيل دائم الجريان. فإذا ضمه - هناك - مجلس مع رجال دولة أو علماء أو
 شعراء وطلب منه أن يتحدث فإنه لا يستطيع قطعاً أن يتحدث عن أنهار جارية
 في موطنه، أو عن حدائق وزهور، أو عن مبان وقصور، فلم يبق إلا أن يتحدث
 عن فصاحة اللغة التي يتحدثها هو وقومه سليقةً في حين يستعملها رفقاء المجلس
 في مصر كتابةً بعد تعلمها صناعةً. ولا ننسى أنه ألف (تاريخ اليمن) بناءً على
 اقتراح القاضي الفاضل (٥٦٣هـ)^(٢). وربما عبره بعض الكتاب والأدباء من أن
 قومه في اليمن يسمون العين جحمة، والذئب قلوباً، والأصابع شنانر، والأذن
 صنارة. وهذه تسميات مخالفة لما في الكتاب الكريم، وقد ورد مثل هذا في
 المخاحرات بين بعض اليمنية والتميمين أمام أبي العباس السفاح، حيث قيل
 عنهم: «إنهم كانوا بين ناسج برد، وسائس قرد، ودابغ جلد، وراكب عرد. دل
 عليهم هدهد، وغرقتهم فأرة، وملكتهم امرأة»^(٣).

(١) النكت المعصرة ٧ وراجع ص ٦٦ - ٦٧ نجد تأنيث الرأس. والرأس مذكر.

(٢) تاريخ اليمن ٣٦.

(٣) انظر الجاحظ: البيان والتبيين ١ / ٣٣٩، والتوحيدي: البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، بيروت: دار
 صادر ١٩٨٨، ج ٦ - ١٦٩، والبيهقي: المحاسن والمساوي، بيروت، ص ١٥٩. وانظر في جمهرة اللغة
 مود (مدر) و(شدر)، و(ججم)، و(قلب)، وبعضها منقول عنه في لسان العرب.

ومما يؤكد صفة الافتعال في هذا الزعم أنه نقل عن جده زيدان بن أحمد قوله: «أنا أعدُّ من أسلافي أحد عشر جدًّا، ما منهم إلا عالم مصتَف في عدة علوم!!»^(١) (علامة التعجب من عندنا). وجده المزعوم وأجداده الأحد عشر، لم نسمع عنهم ولا عن تصنيفاتهم في العلوم المختلفة إلا منه في هذه الإشارة. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فلو فرضنا أن بين الجدِّ ومن قبله خمسين عامًّا، وزيدان هذا من مواليد القرن الخامس، لكان الجدُّ ذو الرقم سابقًا لنزول القرآن الكريم أو معاصرًا له إن تسامحنا. وهذا يعني تعديل رأينا - نحن المحدثين - في أوليات التصنيف باللغة العربية. وسامح الله المرحوم محمد فؤاد سزكين! كيف غفل عن هذا الخبر المهم فلم يعتمد في كتابه (تاريخ التراث العربي)، ولا رحمة على كارل بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) لأنه مستشرق!

(٣)

وبعد عمارة نجد باقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) يذكر في معجمه بعض هذه المناطق وينقل عنه دون أن يصرح بالنقل. ففي (الزرائب) يقول: «الزرائب: بُليد في أوائل اليمن من ناحية زبيد، وإليه ينسب عمارة اليميني الشاعر فيما قيل»^(٢).

وفي موضع آخر يقول: «عكوثان... وهو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد باليمن، من أحدهما عمارة بن أبي الحسن اليميني الشاعر، من موضع فيه يقال: الزرائب (!)... وجبالًا عكاد: فوق مدينة الزرائب. وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم. لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحة، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه»^(٣).

(١) التكت المصرية ٨.

(٢) باقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت: دار صادر ج ٣ / ١٣٦.

(٣) معجم البلدان ج ٤ / ١٤٣.

ونلاحظ أنه في الموضع الأول ذكره بصيغة التمرريض (فيما قيل). أما في الموضع الأخير فنقل عن عمارة دون تصريح رغم أن العبارتين متطابقتان، وهو لا يعرف اليمن أصلاً، فإذا جاء من بعده ونظر فيما سطره ظنه يتحدث عن مشاهدة، فتثبت هذه الأسطورة عنده .

أما المؤرخون اليمنيون التالون لعمارة، فلم يؤكدوا هذه الأسطورة ولم ينصوها، ويحمد لهم أنهم نصّوا على النقل من كتابه. ذكر بامخرمة (ت ٩٤٧هـ) «قال أبو الحسن الخزرجي: وذكر عمارة في مفيدة أنه ولد بقرية الزرائب، وهي في الناحية الشرقية من المخلاف السليماني. وذكر أن أهل تلك الناحية باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى عصره لم تتغير لغتهم، وذلك أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة في مناكحة ولا مساكنة، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه»^(١).

وما نقله بامخرمة يطابق ما ذكره عمارة وياقوت كما هو واضح لكل ذي عينين، لكنه اكتفى بالنقل مجرداً من كل تعليق .

غير أن المُجَبِّ العجّاب إنما جاء عن طريق صاحب القاموس المحيط (ت ٨١٧هـ)، ثم عن طريق شارحه الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) في مادة (عكد)، يقول الأول: «... كسحاب: جبل قرب زيد أهلها باقية على اللغة الفصحى» اهـ. (!!!) ويزيد الثاني فيقول: «إلى الآن. ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم» اهـ .

ولا نريد التعليق على ما قالاه، غير أننا ننكره جملة وتفصيلاً، ونقول: إن الأول نقله من ياقوت دون أن يذكره، على عادته في هذا الشأن، خصوصاً أنه ذكر المواضيع كمعادته نهاية المادة، وهذه يجعلها أشبه شيء بالتحلية. فإن قلت: إن الفيسروز آبادي سكن في زبيد، قلنا: نعم، سكن فيها، لكن السكن لا يلزم منه

(١) الطب بن عبد الله بامخرمة. تاريخ نجر عدن، بعناية أوسكر لوفغرين، لندن: بريل ١٩٣٦ ج ٢ / ١٦٥ .

التحرّي. وإلا فلو كان صادقاً فلماذا لم ينقل عنهم ماداموا فصحاء؟ وكان هذا سيوفر عليه كثيراً من العناء في تعقب صاحب الصحاح في كل شاردة وواردة. وفوق هذا سيجنبه التصحيف والتحريف سواء الذي وقع فيه هو أو وقع فيه السابقون ونقله عنهم دون تبصر، بل سيعفيه من تصفح الأسفار الستين التي زعم في المقدمة أنه رجع إليها في تأليف قاموسه، فهؤلاء القوم قريون منه ويستطيع الرجوع إليهم متى شاء، وله في منصب قاضي القضاة أكبر تسهيل له في عمله.

وهذا الذي علقنا به سبقنا إليه اللغوي الجليل الشدياق في غير موضع من الجاسوس، قال: «ومع أن المصنف ألف كتابه في زبيد وزعم أن أهل جبل عكاد القريب منها باقون على العربية الفصيحة (...) لم يتعن لمشافهتهم والأخذ عنهم، بل قلما أسند شيئاً مما رواه إلى قائله وإن كان على غير القياس»^(١).

وفي موضع آخر يقول: «وبقي النظر في صحة هذا الخبر. إذ لا يحتمل أن اللغة العربية بقيت إلى عهد المصنف سالمة من اللحن، حتى إنهم اعترضوا على الجوهري لقوله: (ومشافهني بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية)، والجوهري كان قبل المصنف بنحو أربعمائة سنة. غير أن الشارح أثبت قول المصنف وزاد على أن قال: إلى الآن (...) خوفاً على لسانهم. اهـ. يعني أنهم لا يدعون الغريب بقيم عندهم أكثر من ثلاث ليال. [١٧] فالعجب من المصنف والشارح لم يذكرنا عددهم ولا حسبهم ولا نسبه. [٢] وتمام العجب أنه لم ينبغ فيهم شلخ في فصل إلينا من شعره شيء. [٣] وأن المصنف لم يشافههم كما شافه الجوهري عرب زمانه مع أنه كان قريباً منهم. فيأليته سألهم عن «تقيات المرأة لزوجها»^(٢).

(١) أحمد فارس الشدياق: الجاسوس على القاموس. قسطنطينية: مطب الجوائب ١٢٩٩ هـ ص ٨١

(٢) الجاسوس ص ٥١٤، والمعكوفان الرقمان؛ | من عندنا. والشدياق يسخر من صاحب القاموس إذ أورد في (فاء) تقيات المرأة لبعلاها وألقت نفسها عليه ولم يرد ذلك في الصحاح والعياب والأسنس والنصباح وهذا تصحيف تقيات (بالموحدة)، صوابه ما جاء في اللسان: تقيات المرأة لزوجها تنتن عنه وتكسرت ه تدللاً. وألقت نفسها عليه من الفيء والرجوع. وأنه باللفظ تصحيف كما قال الأزهرى انظر ص ٤١٠

٤١١ من الجاسوس

وأقول: إن الشدياق لم يصل إليه ادعاء عمارة نفسه، بل خلاصتها^{صته} الموجودة عند صاحب القاموس وشارحه. وهو على حق فيما ذكر جميعاً.

وهذا يدل أن ديدن القاموس إنما هو النقل من تكملة الصغاني على صحاح الجوهري ثم من كتب البلدان وكتب الطب وبعض كتب الرجال، مع سبكها جميعاً بطريقة المختصرة المتخففة من الشواهد وإيراد الأنوال. ولو افترضنا جدلاً - ونقول جدلاً؛ لأنه لم ينقل عن هؤلاء الفصحاء شيئاً - أنه نقل بعض ما نقل عن تجربة لكانت مصيبة عليه. فقد ذكر في مادة (عدر) أن العدار - كغراب - دابة تنكح الرجال في اليمن ويخرج من نطفها دود! (١)، فهل صادفه وتأكد من هذا الكلام الغث؟

ونضيف إلى الفقرة (٣) من كلام الشدياق؛ أن ابن جني، معاصر الجوهري، يفرد في خصائصه باباً سماه: «باب في ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر». علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخلط. ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للفتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ من أهل الوبر. وكذلك أيضاً لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يرد عنها. وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا؛ لأننا لا نكاد نرى بدويًا فصيحًا (٢).

ومضى ابن جني يحكي قصة البدوي مدعي الفصاحة وكيف ارتكب أخطاء كثيرة مما أوجب نبذ لغته وإطراحها (٣).

(١) انظر (عدر) في القاموس، وتاج المروس. وانظر تعليق مطهر الإرياني في كتابه: للمعجم البعني في اللغة والترات. حول مفردات خاصة من اللهجات البعنية، دمشق ص ١٩٩٦ ص ٦٠٩.

(٢) ابن جني: إخصائص ٢ / ٥.

(٣) إخصائص ٢، ٦ - ٨.

على أن الشيخ محمد علي التجار محقق الخصائص أفرد هامشاً مطولاً لهذا الخبر فنقل كلام القاموس في (عكد)، ثم كلام الزبيدي المتوفي ١٢٠٥ هـ وكلام ياقوت في (عكوتان)، كأنه يؤيدهما في بقاء الفصاحة في تلك المنطقة حتى القرن الثالث عشر الهجري .

وذهب دارس خصص كتاباً كاملاً عن التاج وصاحبه، إلى أن الزبيدي تلقى اللغة الفصحى من الأعراب الذين التقاهم في جنوبي الجزيرة وسمع منهم بعض ما يتعلق بأمور اللغة^(١) .

وجاء باحث آخر خصص كتابه لزيادات الزبيدي على القاموس، فنقل ما قدمنا عن شلاش دون تعليق^(٢) . وأحسن صنفاً عندما أفرد ملحقة للمعجم اليمني في التاج وفي التكملة معاً^(٣) . فلإذا هي (٥٤) أربع وخمسون كلمة، منها (٢٥) خمس وعشرون استدرکها على القاموس من (لسان العرب) لابن منظور تصريحاً. وبقي إجمالي ما سمعه (٢٠) عشرون كلمة، يهمن أنها ليست من المنطقة التي بقيت فيها اللغة فصيحة إلى عهده، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم نجد العالم المدقق عبد الفتاح سليم لا يدقق عند هذين الخبرين . قال: «ولم نثر على نص يثبت خلوص لغة الأعراب فيما وراء القرن الرابع، اللهم إلا ما جاء في معجم البلدان (...)» قال: وجبلاً عكاد فوق مدينة الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم (...) وجاء عن

(١) إهاشم طه شلاش: الزبيدي في كتابه تاج العروس، بغداد: دار الكتاب للطباعة ١٩٨٠م ص ٢١٥. فإذا تأملنا في الحكم لم نجد إلا تصحيحه (استأهل) اعتماداً على ما جاء في اللسان عن الأرمري ثم الزمخشري، وأنه سمع ذلك من أعراب الصفراء في اليمن. ولم يتطرق البتة إلى ذكر المنطقة التي قال فيها (إلى اليوم). فنأمل .

(٢) فريد عوض حيدر: دراسة لغوية لزيادات الزبيدي واستدراكاته على القاموس المحيط، القاهرة: مكتبة الآداب ٢٠٠٥م، ص ٤٣-٤٤ .

(٣) فريد عوض حيدر: دراسة لغوية . ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

الفيروزآبادي ما يفيد أن هؤلاء باقون على فصاحتهم حتى القرن التاسع، بل جاء عن شارحه مرتضى الزبيدي ما يفيد امتداد عصر فصاحتهم حتى زمنه سنة ١٢٠٥هـ. قال الفيروزآبادي (...) (وزاد الزبيدي...)»^(١).

وواضح أن عبد الفتاح سليم استفاد من محقق الخصائص. غير أن لنا ملاحظات على كلامه، فهو يقول (خلوص لغة الأعراب). وهؤلاء ليسوا أعراباً بل أصحاب مدر. وهو يعبر عن امتداد زمن الفصاحة إلى أيام الزبيدي فقال: (زمنه سنة ١٢٠٥هـ)، وهذا ليس زمن التأليف بل زمن وفاة المؤلف شارح القاموس. وبالتأكيد لم يعرف منشأ هذه الأسطورة، بل تلقاها بالقبول.

ويأتي اللغوي الجليل نهاد الموسى فيذكر أن التطور الجاري على العربية المنطوقة جعل لهجات الخطاب جميعاً تطرح الأعراب، وأن هذا لم يقتصر «على أهل الأمصار التي تأثرت بالاختلاط تأثراً مباشراً، فإن لهجات الأعراب الذين لم يخرجوا إلى الأمصار وبقوا في الجزيرة فقط فقدت الإعراب بالتدريج أيضاً»^(٢). ثم يذكر في الهامش قول الثلاثي: الفيروزآبادي والزبيدي وياقوت. ويعقب: «إذا صح ذلك كان الشاذ الذي يؤيد القاعدة. ولكن هذه الظاهرة المفردة تستحق أن تجرد لها بعثة لغوية؛ لأن التحقق منها يساعد في جلاء مسائل على درجة بالغة الأهمية في علم اللسان البشري، وعلم اللسان العربي وتاريخه. وخاصة أنها ظاهرة في الجنوب المقول فيه: إنه لسان مغاير للسان العربي في الشمال»^(٣).

(١) عبد الفتاح سليم. اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه. القاهرة: دار المعارف ١٩٨٩، ج١ / ٢٦٨.

(٢) نهاد الموسى. التحول إلى النقص في العانم العربي الحديث، عمان: دار الفكر ١٩٨٧م، ص ٧٢.

(٣) نهاد الموسى. التحول إلى النقص. ص ٧٢ هامش (٣).

سجاري نهاد الموسي في رغبته للتحقق من هذه (الظاهرة الفريدة) مع إيماننا بأنها أسطورة أسسها شاعر مفاخر لأقرانه. وأول ما نجده الاضطراب في مواقع الأماكن التي ذكرها عمارة ومن نقل عنه دون أن يسميه؛ فليس في اليمن لأقرب زبيد ولا بعيداً عنها ما يسمى مرطان / مرطانة، ولا وادي وساع، ولا عكوتان/ عكوتين .

وأما (عكاد) بفتح العين وضمها فهي «قرية بالقرب من ميدي في محافظة حجة»^(١) وفيها عمارة أمين مستغلقة .

وأما (الزرائب) فهي: «بلدة خارية في نهامة الشمالية بجوار جبل العكوتين، فيها دارت المعركة الفاصلة بين جيش الملك علي الصليحي وبنو نجاح الأحبوش سنة ٤٥٠هـ... وفي الزرائب مولد عمارة»^(٢) (هكذا) .

ينقل محقق تاريخ اليمن عند ذكر عمارة فصاحته وقومه - بالتسليم - ما ذكره القاموس والتاج، ويعلق بما يلي: «خبرني الأخ قاسم ناصر من (مدينة جازان) أن أهل الجبلين المذكورين يقصد جبلي عكاد المذكورين في الشعر وعند عمارة لا زالت (هكذا) لغتهم في الفصحى إلا بعض الشيء بحكم الاختلاط. وعكوتان وعكاد والزرائب من وادي بيث بالمخلاف السلیماني»^(٣)

فها قد اتضح أن هذه المواضع جميعاً، إلا ما لا وجود له، بينها وبين زبيد مسيرة ما بين أسبوع إلى خمسة أيام. وأما ما نقله المرحوم قاسم ناصر للمرحوم المحقق فلا يعاج عليه؛ لأن مفهوم (الفصاحة) غير واضح عند الأخير، أهي

(١) إبراهيم المقضي معجم البلدان والقبائل اليمنية، صنعاء: دار الكلمة ج٢ / ١١٠٠. أي بينها وبين زبيد مسيرة خمسة أيام على الأقدام.

(٢) معجم البلدان والقبائل ج١ / ٧٣٨

(٣) تاريخ اليمن لعمارة ص ١٢٦ هـ المحقق

المحافظة على علامات الإعراب الأصلية والفرعية؟ أم إن مخارج الأصوات عند هؤلاء كما قرره علماء التجويد نقلاً عن النحاة؟ أم إن بعض المفردات دلالتها عندها كما في المعاجم القديمة؟ فإن كانت الأخيرتان فهما متوافرتان في كثير من اللهجات الحديثة داخل اليمن وخارجها. أما الأولى فلا .

قال القدماء: «إذا كذبت فكن ذكوراً». والمرحوم عمارة يقول في كتابه: إن معركة دارت بين جيش المكرم الصليحي وجيش النجاشيين، في نفس منطقته، ومناذي جيش المكرم يناذي بأن «الجلدة السوداء تعم العبد والحر، ولكن إذا سمعتم من يسمي العظيم عزماً فاقتلوه فإنه حبشي، ومن سماء عظماً فهو عربي فاتركوه»^(١١).



(١١) تاريخ اليمن لعمارة، ص ١٣٤

زُهاب العربية الفصحى

زهاب العربية الفصحى

الخوف ظاهرة طبيعية عند البشر. وسيلة مهمة للحفاظ على الحياة من الحيوانات والزواحف والنار والبرد والمرض. وكل ما يضر بحياتهم، لكنه يصبح ظاهرة مرضية إذا تجاوز هذه الحدود. فلنفرض أن أبوين لديهما طفل محبوب، يحرصان على ألا يصيبه ما يؤذي؛ فتراهما يبعدانه عن مصادر الخطر كالنار والكهرباء والسوائل المضرّة، ويدفئانه خشية البرد. ويبعدانه عن تيار الهواء. هذا الخوف مسوّغ ومشروع. لكنه يصبح رهاباً إذا بالغوا في تغطيته بعدة طبقات من الملابس الثقيلة التي تضايقه وتمنع حركته الطبيعية. ومنعاً عنه التعرض للهواء بإغلاق نوافذ البيت كافة. ستكون النتيجة وبالأعلى هذا الطفل المحبوب؛ إذ إن جسمه افتقد للمناعة الطبيعية؛ فساعة يتعرض للهواء عند خلع هذه الأغطية أو عند تعرضه لتغير في درجة حرارة الجو. يبدأ في العطس ويصاب بالزكام، وربما انقلب الأمر إلى التهاب في اللوزتين والخلق والجيوب الأنفية والربو.

ويبدو أن الخوف على العربية الفصحى عندنا - نحن العرب - تجاوز حدود الخوف الطبيعي عند الأمم الأخرى. التي تحرص على لغاتها وتحيطها بالرعاية وتسمى إلى تعليمها بالطرائق الصحيحة بين أبنائها وغير أبنائها. وتعمل بجهد ودأب على تنمية كل ما من شأنه أن يطورها. ذلك أن لدينا انفصاً بين القول والفعل لا يخطئه المتأمل في أحوالنا، فكل - إن لم نقل أغلب - تصرفاتنا حيالها تنبئ عن أننا نعمل على تحطيمها والإساءة إليها وإلى أنفسنا ما بين إفراط في إفراط في الخوف غير المسوّغ وتفریط في تعليمها وتنميتها. وهذا نوع من الخوف المرضي سماه علماء النفس الرهاب.

«والرهاب: الخوف المرضي من بعض الأشياء والأفعال والأحوال (...). ويتنوع الرهاب بتنوع مصادر الخوف مثل: رهاب الانغلاق ورهاب الانساع ورهاب الأوساخ... إلخ»^(١).

«فرهاب الأمراض: الخوف الشديد من الإصابة بالأمراض المختلفة يدفع الإنسان إلى سلوك وقائي متشدد مع نفسه ومع غيره»^(٢). وفي مرجع آخر يعرف الرهاب بأنه «خوف قوي ودائب وغير منطقي يبعثه تشبه أو موقف معين، كالخوف المرضي من الأماكن المفتوحة (...) والأماكن المغلقة ورهاب الدم وخشية الظلام وخوف الغرباء والخوف من الحيوانات (...) خوف مفرط على غير أسس تكون مقبولة أو معقولة لدى الخائف نفسه»^(٣).

العربية الفصحى تولى بين لغة الشعر القديم من الجاهلية حتى منتصف القرن الثاني الهجري، ثم لغة القرآن الكريم، ثم لغة مجموعة من القبائل البدوية في القرن الثاني هي: قيس، وأسد، وهذيل، وبعض طيء وبعض كنانة^(١). هناك خصوصية لكل هذه اللغات الثلاث، إضافة إلى وجود قاسم مشترك يجمع بينها. وبها قواعد شائعة عامة أساسية في أنظمتها المختلفة، وقواعد ثانوية أقل شيوعاً. والمعلوم أن كل شيء في الدنيا عرضة للتغير واللغة من بينها، غير أن معجمها أسرع الجوانب في التغير، في حين تظل أنظمتها الأخرى عصبية على التغير. وإذا حدث فيها تغير فلا يحدث إلا بعد مرور أجيال.

(١) عبد المجيد سالمى ونور الدين خالد وشريف نبوي: معجم مصطلحات علم النفس، عربي فرنسي إنجليزي، القاهرة، وبيروت: دار الكتاب المصري اللبناني ١٩٩٨، ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) نفس المرجع وذكر له ١٢٦ صفحاً من ص ١١٦ - ٢٢٩.

(٣) كمال دسوقي: ذخيرة علوم النفس، إنجليزي فرنسي عربي ألماني، القاهرة: الدولية للنشر ١٩٨٩، ص ١٠٧٥. وفي ١٠٧٦ - ١٠٧٧ شرح لبعض أنواعه كرهاب الحمام والسرطان ومبيض الباب والسراع والمركبات والشراب. وقارن بينه وولان دورون وفرانسواز بارو: موسوعة علم النفس، تعريب فؤاد شاهين، بيروت: عويدات ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٨١٨.

(٤) انظر النازمي: كتاب الحروف، نجده محسن مهدي، بيروت: دار المشرق ١٩٦٩م، ص ١٤٧، وقارن بالزهر لتبصري ج ٢١١ - ٢١٢.

بعض اللغويين القدماء والمحدثين عندهم رهاب الفصحى، ونعني به: الخوف المبالغ فيه على الفصحى من أي تغير يحدث لدلالة كلمة ما، أو قاعدة جزئية في الصرف والنحو. ولا ينبغي أن يفهم من كلامنا أن الفصحى بغير معايير؛ فمعايير الصواب والخطأ في استعمال اللغة موجود في كل مستوى من مستويات اللغة الواحدة. غير أن الأمر تحول إلى رهاب العربية الفصحى. وهذا الرهاب تجاوز اللغويين إلى غيرهم ممن لهم علاقة بدراسة اللغة كالفنهاء والمدرسين والإعلاميين؛ فقد كثرت الكتابات في التصحيح اللغوي سواء كانت على هيئة كتاب أو فصل في كتاب، أو مقالات في الصحف أو برامج في الإذاعة. فإذا تأملت ملياً فيما قيل عنه خطأ يراد تصحيحه؛ وجدت كثيراً منه يتردد في تراثنا منذ القرن الثاني الهجري إلى الآن، ولم تجد معياراً محدداً لذلك. ووجدت في الرهابيين من يدقق ويحقق لكن الرهاب يغلبه. ووجدت فيهم قليل البضاعة من علوم اللغة، ووجدت من يزعم أن له معياراً ثم يخالف معياره هو. ولا تفسير لذلك إلا الرهاب مضافاً إليه الفصام بين القول والعمل. ودعنا ننظر في أعمال بعض الرواد الأقدمين لنرى ذلك واضحاً لديهم.

فالكسائي (ت ١٨٩هـ) «يعتد بسماعه هو في تخطئة العامة أو عدم تخطئتها، وقد جرّ عليه ذلك اتهام معاصريه بأن سماعه هو غير حجة، فهو كثيراً ما يسمع اللحن والشاذ ويقيس عليهما»^(١).

ومقياس الفراء (ت ٢٠٧هـ) مضطرب بين السماع والقياس. فهو أحياناً يلتزم السماع، وأحياناً يتوسع في القياس وأحياناً لا يلتزم السماع ولا القياس^(٢). أما الأصمعي (ت ٢١٦هـ) فلم يكن على رأي واحد إزاء الشعراء، فبعضهم حجة وبعضهم لاهن، لكن حياتهم متشابهة وزمانهم واحد، وذلك

(١) عبد الفتاح سليم: اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٩م، ص ٥٥.

(٢) اللحن في اللغة ص ٦١.

بدفع إلى القول بأن هناك أسباباً أخرى لتلحين من لحن (...) وهي أسباب غير لغوية على كل حال^(١).

«ولم نجد لابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) مقياساً ثابتاً في التصويب والتخطئة، وإنما أمره دائر بين التزمّت أحياناً بالتوقف عند الأفصح وطرح ما عداه، والتسامح أحياناً أخرى بالأخذ من كل اللغات»^(٢).

ولم يكن ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) «ذا مقياس موحد في حكمه على استعمال العامة تخطئة وإجازة»^(٣).

وترجع شهرة (درة الفوائد) للحريري (ت ٥١٦هـ) «إلى ما اشتملت عليه من انتقادات لغوية متمسكة (...) غالب ما فيها مسطر في كتب أسلافه من علماء التنقية اللغوية وغيرهم»^(٤) ووصل به تشدده إلى حد أنه هو نفسه وقع في كثير مما خطأه^(٥).

ويُجمل نعمة العزاوي عيوب هذا النقد اللغوي في^(٦):

التزمّت والجمود، وكان من مظاهره: الاحتكام إلى القديم والتقيّد بالعرف اللغوي، وعدم التفريق بين الخطأ والتطور، والتمسك بالأفصح الذي اختلفوا عليه...

(١) اللحن في اللغة ٦٤، ونعمة وحجم العزاوي: النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، بغداد دار الخيرية ١٩٧٨م، ص ١١١.

(٢) اللحن في اللغة ٦٤.

(٣) اللحن في اللغة ٧٩.

(٤) اللحن في اللغة ٨٥.

(٥) اللحن في اللغة ٨٦.

(٦) «نقد اللغوي» ٣٨٥ - ٤١١ وقد توفّر صديقنا الدكتور أحمد محمد قدور على دراسة (كتب اللحن والتثنية اللغوي حتى القرن التاسع الهجري) دمشق وزارة الثقافة. فنوصل: إلى أن هذه الكتب جميعاً ليست على حق فيما زعمته من لحن في الأبنية والمشتقات بنسبة نصل إلى ٩٠٪، انظر ٢٣٩ حتى آخر ذلك.

التعصب للمنشىء أو عليه ...

الفصل بين اللفظ والمعنى ...

وهذا الفصام - مع الرهاب - واضح عند المصويين المحدثين^(١):

شاكير شقير: لم يلتزم مقياسه في نقده (٣٢٧) ولا في استعماله اللغوية (٣٢٩).

إبراهيم اليازجي: لم يلتزم مقياسه في نقده (٣٤٢) ولم يكن ذا مقياس واحد (٣٤٣).

أسعد داغر: لم يلتزم مقياسه في كل انتقاداته (٣٥٣) ولا في استعماله اللغوي (٣٥٤).

عبد القادر المغربي: ربما رفض ما له وجه صحيح (٣٦٩).

مصطفى الغلاييني: لم يلتزم مقياسه في كل ما أورده (٣٧٤).

محمد علي النجار: لم يلتزم في بعض ما أورده (٤٠٢) ولم يكن موفقاً في كل ما أنكره (٤٠٧).

أحمد أبو الخضرم منسي: خرج في مسائل على منهجه. وفي استعماله اللغوي ما يخالف مقياسه (٤١٥).

أحمد العوامري: لم يلتزم مقياسه (٤٢٠).

عباس أبو السعود: لم يلتزم مقياسه في كل مواده (٤٢٨).

الآب أنستاس ماري الكرملّي: خرج على مقياسه في أمور أربعة (٤٤٧).

كمال إبراهيم: لديه مخالفة بين ما صرح به من منهج وما حكم به على الاستعمالات (٤٥٠).

(١) هنا سذكر رقم الصفحة وكلها من كتاب (اللعن في اللغة) تخفيفاً على انهوامش

مصطفى جواد: لم يكن لديه مقياس ثابت، بل كان يضطر إلى تخطي المعجمات العربية المعتمدة، لأنها قالت بما لا يقول به وقررت ما ينقض حكماً من أحكامه^(١).

أحمد مختار عمر: قد يخطئ ما لم ينص القدماء على خطئه، ولا دليل عنده إلا المنطق العقلي وحده^(٢). وقد يجد ظاهرة لها استعمالات قديمة وأقرها المجمع اللغوي الذي هو عضو فيه، ومع ذلك يعدها خطأ ويرفض قرار المجمع^(٣)! والعجيب أنه في كتبه الأخرى يرتكب ما يحذر الكتاب منه^(٤).

عبد الفتاح سليم: لم يسلم من الرهاب على غزارة علمه، فهو يخالف مقاييسه، وأحياناً يخطئ أو يجيز دون سند إلا استنكاره أو استحسانه الشخصيين، فهو يخطئ (سأهم والمساهمة) رغم إقرار المجمع القاهري لهما، ويفضل عليهما (أسهم والإسهام) مع عدم ورودهما في المعجم^(٥). ويخطئ (اكتشف) لعدم وجودها في المعاجم القديمة ويفضل عليها (كشف)^(٦).

أهم مظاهر رهاب الفصحى:

مظاهره كثيرة لكن أبرزها من وجهة نظرنا ثلاثة:

- الخوف من التطور التركيبي في الفصحى.

(١) انظر التفصيل في: محمد ضاري حمادي: حركة التصحيح اللغوي في المصر الحديث، بغداد: الرشيد ١٩٨٠م، ص ٢٢٧-٢٢٩.

(٢) أحمد مختار عمر: أخطاء اللغة العربية عند الكتاب والإذاعين (ط٢)، القاهرة: عالم الكتب ١٩٩٣م، ص ١٨٩.

(٣) نفسه ص ١٩٠-١٩١.

(٤) انظر مثلاً: علم الدلالة، الكويت: دار العروبة ١٩٨٢م، ص ١٦١ ومثله - دون دليل - عبد الله التطاوي: هود إلى الصحة اللغوية، مط جامعة القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٤٠، و ص ص ١٠١-١١٢.

(٥) عبد الفتاح سليم: في النقد اللغوي دراسة نقوية، القاهرة: مكتبة الآداب ٢٠٠١م ص ٣٩، ١٧٧، ٢٦١ والواقع أن أسهم وسأهم كليهما لم يرد بمعنى الاشتراك في المعاجم، غير أن سأهم ومشتقاتها مذكورة في عصر الاحتجاج وما بعده من عصور، في حين أن الأخرى لا تعضدها النصوص. انظر: عباس السوسنة: العربية الفصحى المعاصرة وأصولها التراثية، القاهرة: مكتبة غريب ٢٠٠٢م ص ص ٣٧-٤٤.

(٦) في النقد اللغوي ٨٢، ٢٢٧.

- رُهاب الهمزة .

- رهاب دراسة اللهجات الحديثة .

وإليك التفصيل:

أولاً، الخوف من التطور التركيبي في الفصحى:

ذكر بعض أساتذتنا «أن استخدام اللغويين المحدثين لكلمة (التطور) لا يعني تقييم هذا التطور والحكم عليه بالحسن أو بالقيح، فإنه لا يعني عندهم أكثر من مرادف لكلمة (التغير)»^(١) . وهذا حق. لكنني في هذا البحث أريد بالتطور التغير إلى أحسن، ولا أريد أن يدل على معنى محايد. أما الظاهرة التي أصفها بالحسن فهي الظاهرة التي تضيف إلى العربية جديداً، أو تستفيد من إمكانية تعبيرية فيها لم يلتفت إليها القدماء كثيراً. وغني عن القول أن هذه الاستفادة لا تتم إلا من خلال استعمال أبناء العربية لهذه اللغة للتعبير عن أغراضهم المختلفة. أما الوقوف عند المحرمات التي زادت على ما هو حلال في اللغة فإنما هو تشبيط للهمم وسد لأبواب التغير سداً محكماً، مما يؤدي إلى الاعتقاد أن هذه اللغة الشريفة لا يستطاع التعبير بها دون خطأ. وسرى أن هناك ظواهر تركيبية (صرفية ونحوية) كان سيعطلها تخطيط الرهابيين لولا أن الله سلم. ومنها:

١- الاشتقاق من الجامد والأعجمي:

وهذه ميزة عظيمة أبان عنها الأستاذ عبد الله أمين^(٢)، ففيها اشتقاق من أسماء المعاني من غير المصادر وهي أسماء العدد وأسماء الأزمنة (١٥-١٨)، وفيها اشتقاق من أسماء الأعيان من أسماء الأمكنة والأقارب والقبائل (٢٣-٣١)، وفيها اشتقاق من أسماء أعضاء الجسم (٣٣-٥٢)، ومن أسماء الأصوات (١٢٥)، ومن حروف المعاني (١٤١)، ومن حروف المباني (١٤٤-١٤٦). وقبله

(١) رمضان عبد التواب: التطور اللغوي. مذكره. وعلته وقواتبه. ط٣. القاهرة ١٩٩٧م. ص ١٤

(٢) عبد الله أمين: الاشتقاق. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦م. والأرقام التي سترد من صفحاته

نشار أبو علي الفارسي ثم تلميذه ابن جني إلى أن العرب اشتقت من الأعجمي كما تشتق من أصول كلامها، وأورد أمثلة كثيرة منه^(١).

غير أن الرهايين كانوا يفرعون إذا استخدم كاتب أو شاعر هذه الإمكانية ويمعبونها عليه، فقد عابوا على أبي تمام قوله: (تفرعن الأجل)، فعابها خمسة من الشراح والنقاد وأجازها المعري^(٢).

كما عدّ بعضهم هذه الميزة عيباً عند المتنبي، فقد عد من أخطائه (!) أنه «اشتق من الجامد ومن أسماء الأعيان كالقرط والنمر واللحم (...) واشتق فعلاً على وزن (تدبّر) ثم أتى باسم الفاعل منه وجمعه فقال: المتديريها، ومعناها التخذيزها داراً»^(٣). والمعجب أن هذا الخوف وصل إلى المجمع القاهري الذي أجاز الاشتقاق من أسماء الأعيان في العلوم للضرورة (!) ثم عاد بعد دهر فأجازه من غير تقييد^(٤).

٢- في الجمع:

كان جمع المصدر في الفصحى قليلاً، وقد ذكره سيبويه فقال: «وهم قد يجمعون المصادر فيقولون: أمراض وأشغال وعقول، فإذا صار اسماً فهو أجدر بأن يجمع بتكسير»^(٥).

^١ ابن جني: الخصائص - نع محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ١٩٥٦م ج١ / ٣٥٨ والمختصر شرح كتاب التصريف للمازني - نع إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، القاهرة: مصطفى الحلبي ١٩٥٤ ج١ /

١٨٠-١٩١، وانظر عباس السوسة: العربية الفصحى المعاصرة ٣٢ - ٣٥

شرح ديوان أبي نواس شرح الخليل التبريزي، نع محمد عبد العزيز، القاهرة: دار المعارف ١٩٦١ ج٣ / ١٦ وحواليها، ولأسمي المروعة بين النطاشي، نع السيد أحمد صقر، القاهرة: دار المعارف ١٩٦١ ج١ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

^٣ علي محمد عبيد، الأخطاء النحوية والصرفية في شعر المتنبي، ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، بالقاهرة، ١٩٧٩م، ص ٤١٥.

^٤ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاماً، إعداد: محمد شوقي أمين وبريه القزلي ١٩٩٢م، ص ١٦ - ١٧.

^٥ كتاب سيبويه، نع عبد السلام محمد هارون، القاهرة (ط٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٧٥ - ١٩٧٩م، ج٣ - ٤١٠، وانظر شرح المنهاج لآمن يعيش، القاهرة: ط النصرية ج٥ / ٧٤.

وشارح سيبويه يقول: «قد تجمع المصادر إذا كانت مختلفة أو ذهب مذهب الخلاف. وقال الله عز وجل: ﴿وَنُظُنُّونَ بِاللِّهِ الظُّنُونَا﴾ أراد: ظنوناً مختلفة. ويقال: العلوم والأفهام، في أشباه لذلك كثيرة»^(١). والفيومي يؤكد ذلك «... لأن ضرباً يخالف ضرباً في كثرته وقلته، وعلماً يخالف علماً في معلومه ومتعلقه، كعلم الفقه وعلم النحو (...) وكذلك الظن يجمع على ظنون لاختلاف أنواعه، لأن ظناً يكون خيراً وظناً يكون شراً»^(٢) ومستخدمو العربية المعربة يستخدمون هذه الإمكانية؛ كالفارابي وابن سينا وابن فورجة وأبي الصلت الأندلسي والفخر الرازي والكمال الفارسي والشهاب القرافي ويحيى ابن حمزة وابن خلدون وعلاء الدين الطوسي^(٣) وبعد ذلك نجد اليازجي بخطئ (بعد بذل الجهد)؛ لأن المصدر «لغير المرة والنوع لا يشتى ولا يجمع، فما سمع منه مجموعاً يحفظ ولا يقاس عليه»^(٤)!!

ومما هو قريب من ذلك جمع ألفاظ العقود من العدد، فنجد ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) يستخدم (دور العشرينات)^(٥)، ثم نجد في كتب الفقه، ونجد من بعدها خطأ، فينبغي لهم النووي موضعاً المسألة، قال: «قولهم في كتاب الزكاة (في المثنتين: هي أربع خمسينات وخمس أربعينات) وهذا قد أنكره بعض أهل العربية قال: (لا يجوز جمع الخمسين والأربعين ونحوهما) وهذا الإنكار ضعيف؛ والصواب جوازه، وقد حكاه ابن برّي وغيره عن سيبويه قال: كل مذكر لم يجمع جمع تكسير يجوز جمعه بالالف والتاء قياساً كحمام وحمامات. فيجوز: أربعينات ونحوها»^(٦) وبعد ذلك نجد هذه الطريقة من

(١) السيرافي: شرح كتاب سيبويه، ج١، نع رمضان عبد التواب وآخرين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م. ص ٦٤.

(٢) الفيومي: المصباح المتبر، تع عبد العظيم الشاوي، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٤م مادة (ق ص د).

(٣) العربية الفصحى المعاصرة ٦٩ - ٧٠.

(٤) إبراهيم اليازجي: لغة الخرائف، القاهرة: ط توفيق المؤيدي ١٩٢٧م ص ١٥.

(٥) ابن سينا: القانون في الطب، تع إدوارد القش، بيروت: مؤسسة عز الدين ١٩٧٨م ح ١ ص ١٩٠٠.

(٦) النووي: تهذيب الأسماء واللغات، القاهرة: ط المنيرة ج ١، ص ١١٧.

التعبير عند ابن قاضي شُهبة في سرده حوادث عام ٨٠٦هـ قال: «ولم يزل المطر متواتراً أول الأربعينيات إلى أن بقي منها يومان»^(١).

٣- في النسب:

النسب إلى المفرد هو الغالب قديماً وحديثاً في العربية، ومع ذلك وجدت ألفاظ منسوبة إلى جمع مثل: أنصاري ومدائني وكلايي ومعافري وملاميحي. أي أن في العربية الفصحى إمكانية النسب إلى الجمع سواء كان في الحرفة أو غيرها، استعملت هذه الإمكانية في كل العصور إرادة للتمييز ورغبة في إزالة اللبس. ومع ذلك يصيب الرهاب قسماً من القدماء والمحدثين: لغويين وغير لغويين؛ فيغلطون هذه الظاهرة^(٢). إذ نجد في تراننا: حمام بيسوتي، وخصلة ملوكية، وطعام رياحي، وطبع ملائكي، ومسك خزائني، وعلل أورامية، وأنماطي، وصناديقي، وقدوري، وأقفاصي، وسيوري، وصَوغ طبايعي، وأمر نعاليمية، ومناظرية، وقشوري، وبول صفائحي، وأعضاء عروقية، ولحم غددي، ورسائل إخوانية، ونعم أنفسية، وأفاقية، وأحكام فروعية، وقول خطبي، وجرائحي، وأسائي، وبنية قواعدية، وحقيقة بلدانية، وعلاج عقاقيري، وألفاظ شوارعية، وسُبة عشائرية.

في العربية نسب بإضافة الألف والنون والياء، لكن بعض القدماء كالأزهري زعم أن مثل: «براني وجواني ليس من قديم الكلام وفصيحه»^(٣)، كما زعم بعض المحدثين أن هذه الصيغة مثل رباني ونوراني وجواني ظهرت بعد عصر الاحتجاج^(٤) - ولم يعلم بقول الأزهري - وقال آخر: إن هذه

(١) تاريخ ابن قاضي شُهبة، دمشق: المركز الفرنسي للدراسات العربية، ج ٤ ص ٣٥١.

(٢) انظر بحثاً وافياً عنها في كتابنا: العربية الفصحى المعاصرة ٧٣-٩٢.

(٣) هذا النقل عنه في لسان العرب لابن منظور (ط دار المعارف) (ب ر ر) ص ٥٤.

(٤) محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية، بيروت: دار الفكر ١٩٦٨م ص ١٣٩، وحلمي خليل: المولد

دراسة في نمو وتطور اللغة العربية بعد الإسلام، إسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ ص ٩٩.

الطريقة منقولة عن الآراميين والسريانيين في عهد الأمويين والعباسيين^(١). وهذا غير صحيح، فبعض العرب ينسب الممدود بالنون مثل: صنعاني وبهراني في صنعاء وبهراء^(٢). ونقل سيبويه عن أستاذه الأخفش الكبير «أنه سمع من العرب من يقول في الإضافة إلى الملائكة والجن جميعاً: روحاني، وللجميع رأيت روحانيين»^(٣) ثم بعد ذلك هي طريقة خاصة لإضافة دلالة جديدة للنسب لا تدل عليها الصيغة الخالية من الألف والنون «فمن ذلك قولهم في الطويل الجمّة: جُمَانِي، وفي الطويل اللحية: لِحْيَانِي، وفي الغليظ الرقبة: رِقْبَانِي»^(٤). ونقل ابن الأثير «عن بعض التابعين أنه قال: من أصلح جَوَانِيه أصلح الله برَأْنِيه. قال ابن الأثير: أي باطناً وظاهراً سرّاً وعلانية. وعني بسرّه وبِرَانِيه علانيته، وهو منسوب إلى جو البيت، وهو داخله، وزيادة الألف والنون للتوكيد»^(٥).

٤- في تعريف الألفاظ المبهمة:

هل يتخيل القارئ التراث العربي العظيم المتنوع وقد خلا من: البعض والكل والغير؟ هذا التخيل ممكن لو نجح الرهاب الموجود عند الأصمعي وخلفائه في نفيها من صفحاته. وإذا سبكون المنشئ بحاجة إلى أن يضيف بعد كل واحدة من هذه الثلاث - وغيرها - كلمة ثانية، دون أن تكون (ال) للعهد بينه وبين المستقبل. نُقل عن الأصمعي: «قرأت في آداب ابن المقفع فلم أرَ لحناً إلا في موضع واحد، وهو قوله: العلم أكثر من أن يحاط بـكله فنخذوا

(١) رمسيس جرجس: (النسب بالألف والنون) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج ١١ (١٩٥٩) ص ١٨١. وأورد ١١٣ لفظاً منسوبة بهذه الطريقة.

(٢) كتاب سيبويه ٣ / ٣٣٦.

(٣) كتاب سيبويه ٣ / ٣٣٨.

(٤) سيبويه ٣ / ٣٨٠ ودرة النواص للحريري. نوح محمد أبو النضل إبراهيم: القاهرة: نهضة مصر ١٩٧٥، ص ١١٢ وحاشية الصبان علي شرح الأشموني، القاهرة: ط عيسى الحلبي ج ٤ / ٢٠٢. وعباس حسن النحو الوافي، القاهرة: دار المعارف ج ٤ / ٧٤٥.

(٥) لسان العرب (ج ١) ص ٧٣، وفي كتابنا ٩٣ - ٩٤ أمثلة حديثة.

(البعض)»^(١)، ويرى المعري أن الكلام القديم يفقد هذا، وأن الفارسي يجيزه، وكذلك القياس اعتماداً على بيت لسحيم عبد بني الحسحاس، وهو من عصر الاحتجاج^(٢).

لكن المؤلفين يستخدمون ما نهى عنه الأصمعي، وبعضهم يذكر ذلك ويعلمن خجله من استعماله، فهذا هو الزجاجي (ت ٣٤٠هـ) يقول: «إنما قلنا (البعض والكل) مجازاً على استعمال الجماعة له مسامحة، وهو في الحقيقة غير جائز، وأجود من هذه العبارة: بدل الشيء من الشيء وهو بعضه (...) فأما بدل البعض من الكل فقولك...»^(٣). ولا تعليق لنا على (الجودة) إلا: لماذا لم يستخدمها في كتابه مادامت (أجود)؟! السبب أنها طويلة ومعقدة وصعبة الفهم. وبعد دهر أنكر الحريري في الدرّة (الغير)^(٤). وبعض العقلاء من الفقهاء يؤيد ذلك بالاستعمال وبالمنطق، فهذا هو النووي (ت ٦٧٦هـ) بعد أن يتحدث عن المانعين استعمال هذه التعابير يقول: «وعندي أنه تدخل اللام على غير وكل وبعض فيقال: فَعَلَ الْغَيْرُ ذَلِكَ، والكل خير من البعض. والألف واللام هنا ليست للتعريف ولكنهما المعاقبة للإضافة. ثم إن الغير يُحمل على الضد، والكل يحمل على الجملة، والبعض يحمل على الجزء. فصلّح دخول الألف واللام من هذا الوجه»^(٥). وهناك حديث ممتنع للشيخ عبد الرحمن تاج عن «القول في (غير) وحكم إضافتها إلى المعرفة ودخول (ال) عليها»^(٦).

ممتنع

(١) أبو العلاء المعري: ميثاق الوليد، القاهرة: النهضة المصرية ١٩٧٠، ص ١٩٦-١٩٧. وانظر هذا النقل عن الأصمعي في لسان العرب، مواد: ب ع ض، كذلك ع ي ن، وفي المزمع ١٥٩/٢.

(٢) رسالة الغفران، مع عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٧، ص ١٥٩.

(٣) الزجاجي: كتاب الحمل في النحو، مع علي توفيق الحفمت، إربد: مكتبة الأمل ١٩٨٥، ص ٢٥. وانظر ٢٣، ٢٤.

(٤) درة لغواص ٥٥.

(٥) تهذيب الأسماء واللغات، ج ٢، ص ٢٦-٦٧. وإلى مثل هذا ذهب الشهاب الحنطاجي في شرح الدرّة (ط استنبول) ص ٦٩.

(٦) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٢٥ (١٩٥٩) ص ٢٨-٢٩.

هذه الظاهرة مستعملة في تراثنا نثرًا وشعرًا من القرن الأول حتى أيامنا هذه، ولكن الرهاب لما ينته: فهي هو محقق (الخصائص) يعد من هنات ابن جني استعماله البعض والكل^(١) ثم نجد الرهاب يعم بالتخطئة هؤلاء الأعلام: سيبويه والفراء والمبرد وابن السراج وابن دريد وابن الأنباري وابن فارس وعبد القاهر الجرجاني والمكبري وابن عصفور وابن مالك وابن هشام وابن عقيل وخالد الأزهرى والسيوطي والأشموني والصبان. فيورد أسماءهم مصحوبة بالجرمة التي ارتكبوها، وخاتماً بالحكم النهائي أنه «لا يجوز إدخال (ال) على كل وبعض وفقًا لرأي الأصمعي وأبي حاتم السجستاني؛ لأن ذلك أوفق للسمع، حيث لم يرد في كلام العرب الكل ولا البعض»^(٢)!! ولا تعليق إلا: لماذا اضطرت هذه الكوكبة من العلماء الأفذاذ إلى استخدام هذه الظاهرة إلا لأنها أوفق في التعبير.

ولم يخف الرهاب في القرن الحادي والعشرين: فهي هو العالم الجليل عبدالفتاح سليم يتنقد خمسة من كتب التصويب اللغوي في العصر الحديث: لزهدي جار الله وإبراهيم درديري ومحمد أبو الفتوح شريف، ومعجم الأغلاط اللغوية المعاصرة لمحمد المدناني، ونسيم نصر. فيلوم أولهم لاستخدامه (البعض والكل)^(٣). ويخطئ الثاني لاستعمالهما وإجازتهما فيقول: «وهذا إباحة لاستعمال الكل والبعض وهو غير فصيح، وخلاف المشهور في اللغة»^(٤)، ويلوم الثالث على ذلك أيضًا^(٥). ويلوم المدناني على استخدام (الغير)^(٦)، وكذا صنع مع خامسهم^(٧).

(١) مقدمة محمد علي النجار للخصائص، ص ٣٨.

(٢) عدنان محمد سلمان «دراسات في اللغة والنحو»، جامعة بغداد ١٩٩١م، ص ١٩٦ - ١٩٨.

(٣) عبد الفتاح سليم: في النقد اللغوي ٣٩ - ٤٠.

(٤) في النقد اللغوي ٦٧.

(٥) في النقد اللغوي ٨٠.

(٦) في النقد اللغوي ٢٢٧.

(٧) في النقد اللغوي ٢٩١.

هذه عينات من الرهاب في هذا الجانب. ولا أزعج نفسي الاستقصاء. وأكتفي بالإشارة إلى غيرها في موضوع تضمنين حروف الجر، أو تبادل أماكنها حين تتعلق بالأفعال ومشتقها، فأما الأفعال والمشتقات فلا تكاد تقف عند حصر، وأما حروف الجر فمعدودة. والمصابون برهاب الفصحى يزعمون أحياناً أنها نتيجة ترجمة حرفية غير دقيقة من لغة أوروبية حديثة. فإذا اختبرت هذا الزعم وجدت أن الأفعال المزعومة في اللغة الأوروبية المعينة لا يستخدم حرف جر! ووجدت شواهد لهذه الظاهرة في تراثنا^(١).

ثانياً، رهاب الهمزة:

الهمزة - التي تسمى ألقاً في اللغات السامية - صامت حنجري انفجاري، يتج باغلاق ممر هواء الزفير في الحنجرة إغلاقاً محكماً يليه فتح للممر. وقبل اختراع الخليل (ت ١٧٠ هـ) رمزاً جديداً هو صورة مقطوعة من حرف العين (ء) كان هذا الرمز يكتب بالالف دائماً (ا) في الرسم العثماني أينما وقع في الكلمة^(٢).

هذا عند المحققين الذين ينطقونها نطقاً انفجارياً. أما عند المسهلين فكانوا يرسمون رموز الحركات الطوال عوضاً عن الألف مثل: يومن، يوذى، سولك، جزاؤهم، شعابير، ملايكة^(٣). وقد لا يكتب في الكلمة شيء مثل: يسل، الخاطون، المستهزون، الافدة^(٤). ثم جاءت المرحلة التي استقر عليها كتابة هذا الرمز منذ الخليل. بكتابتها على أماكن هذه الحركات الطوال ولكن دون أن نوضع على كرسي مثل: خطيئة، بريء^(٥).

(١) انظر مثلاً أثر على وأكد على في كتابنا: العربية الفصحى المعاصرة ص ١٩٢-٢٠٨.

(٢) غلام تدرؤي الممد، رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية (٢٥)، عمان: دار عمار ٢٠٠٣ م ص ٢٩٤ - ٣١٥.

(٣) رسم المصحف ٣١٥، ٣٥٥.

(٤) رسم المصحف ٣٥٦.

(٥) رسم المصحف ٣٦٣.

ونجد الرمز منفرداً في وسط الكلمة مثل: يدرءون، رءوس، يشاءون، جاءوك، ءابأؤهم، وأما العدد (١٠٠) فقد كتب مائة، ومئة^(١).

فإذا تركنا خط المصحف إلى غيره وجدنا اختلاف العلماء القدماء في كتابتها، وفي القواعد التي وضعوها، فإذا هي تشعب «تشعباً لا نظير له، ولم تنطبق القواعد التي يذكرها واحد منهم مع قواعد الآخر تطابقاً تاماً، ولم تخل قواعدهم من القول بالجواز»^(٢) فصارت كتابة الهمزة رهاباً؛ إذ ألفت عشرات الكتب في العصر الحديث في قواعد كتابتها، وكلها متأثر بكتاب (المطالع النصرى للمطابع المصرية) من تأليف الشيخ نصر الهوريني (ت ١٢٩١ هـ)، هذا علاوة على ما جاء في كتب وزارات التعليم. ومؤلفو هذه الكتب قد «أسرفوا في ذكر التقسيمات والتفريعات التي تترك القارئ وتوقعه في شيء غير قليل من الحيرة والغموض»^(٣).

توزيع رهاب الهمزة على ثلاثة محاور:

المحور الأول: المبالغة في كتابتها أول الكلمة، وإن كان ترك كتابتها لا يغير المعنى، مثلاً لو أنك كتبت: أحمد، وإيمن، وانت، وانتم. ألتبس هذه الكلمات بغيرها؟ ليس هذا بيت القصيد، بل إن المبالغة أدت إلى الغلط المحض في أمثال: الإستفهام، وإقتصاد، وإنتظار، وإجتماع، وإهتمام، وإبن، وإسم، وإمرأة، وإثنان. وهذه الأسماء لا تنطق فيها الهمزة ولا تكتب^(٤).

(١) رسم المصحف ٣٥٣.

(٢) رمضان عبد التواب: مشكلة الهمزة العربية، القاهرة: الحانجي ١٩٩٦م ص ٥٣. بعد ذلك عرض لقواعدها عبد ابن قتيبة والصولي وابن درستويه وابن جني ثم في صبح الأعشى ص ص ٥٣-٨. وعرض غاته قدروري: رسم المصحف ١٣، ١٤، ٣٢٠، ٣٢٤ لاختلاف ثعلب وابن ولاد والزجاجي في كتابتها.

(٣) مشكلة الهمزة العربية ٧٩. وقد عرض بعد ذلك لسة كتب ونقد طرائقها ٨٠-٩٥.

(٤) انظر مثلاً: ابن جني: سر صناعة الإعراب، نج محمد الزفزاف ومصطفى السقا وإبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، القاهرة: مصطفى الحلبي ١٩٥٤ ج١ / ١٢٦ - ١٢٩، والاستراياضي: شرح شافية ابن الحاجب، نج محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف، ومحمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة: المكتبة التجارية ١٣٥٨ هـ ج٢ / ٢٥١.

المحور الثاني: خطأ كسابقه، إذ صارت تكتب في بداية (ال) التعريف، بل إن المدرسين والمدرسات حين يعلمون الأطفال كتابة الألفباء، يكتبون لهم: أ ب ث ... إلخ. فإذا قلت: إن هذا خطأ أجابوك «أنتك أنت أم الحكومة أحكماء؟»^(١).

أما المحور الثالث: - وهو أكبرها - فإصرار كثير من المدرسين في الجامعة والتعليم العام، وكثيرين ممن يقومون على تحرير دوريات عربية (محترمة)، نقول: إصرارهم على كتابة همزة البداية، وكذلك إلزام الكتاب طريقة واحدة في كتابة الهمزة المتوسطة حتى إن كتبت على حرفين، وكتابة الرقم (١٠٠) هكذا (مائة)، مع وجود قرار من المجمع اللغوي يوصي بكتابتها بغير ألف^(٢).
فها هو عبد الفتاح سليم يعيب على مؤلف خطأه في رسم (مئة) لأن العلماء اصطلمحوا على كتابتها بألف زائدة بعد الميم هي ومثناها!!^(٣) وآخر يريد من العاملين في جامعة القاهرة العودة إلى الصحة اللغوية في أمور كثيرة من بينها تمييز العدد، فيقول: «مائة وألف: يضاف إلى مفرد مجرور: مائة كتاب (...) مع مراعاة ألف زائدة إملائيًا في مائة، وإمكانية فصلها: ثلاث مائة»^(٤).
وهذا ما سلم منه القدماء.

هناك نسخة من القرآن الكريم قديمة بخط العلامة حمود عباس المؤيد^(٥)، وفيها نجد أن همزات البداية لا تكتب في الغالب، وأن (مئة) كتبت على أسماء السور بغير ألف مراراً (ص ٣، ٥١، ١٥٢، ٤٥٥). وأن الهمزة في موقع الوسط إذا وليها واو مد ~~كتبت على الواو~~ كتبت على الواو نفسها بغير زيادة مثل: رؤف (٢٠٨.٢٠٦).

١٠ - شطر بيت المرحوم إبراهيم أبو ناب.

٢١ - مجموعة القرارات اللغوية في خمسين عاماً، ص ٣١٦.

٣١ - في لسان النعري ٨٣.

٤١ - عود إلى الصحة اللغوية ٨٧.

٥١ - القرآن الكريم بخط العلامة السيد حمود عباس المؤيد جمعاً بين قراءتي نافع وعاصم، عن نسخة فريدة بائع الأهر في صنعاء اليمن (مصورة) Chicago: The Open School, 1991.

وإذا تأملنا في (مصحف الملك فهد)، وهو الأكثر انتشاراً في بلاد المسلمين، سنجد أن همزة البداية لا تكتب غالباً، وأن همزة الوسط إذا وليها واو مد أو ياء مد كتبت على السطر يليها رمزا حركتا اللد مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَعَرُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، ﴿تَبَرَّعُوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿رَّعَوْسَ أُمُوكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، ﴿فَادْرَوْا﴾ [آل عمران: ١٦٨] .

والهمزة التي تعودنا كتابتها على حامل نسميه كرسياً أو نبرة مثل: سيئة، ليس لها حامل في المصحف، بل تكتب في داخل الحرف نفسه مثل: سيئة، خطيئة، شيئا، العن. وقد يكون لها حامل لكنها خارجه مثل: شعابر.

وإذا انتقلنا إلى بعض قدمائنا ممن كتب عن رسم هذا الصوت، سنجد ابن قتيبة (ت ٢٦٧هـ) يذكر أن كتاب زمانه ^(١) يكتبون على حد سواء مثل: يقرؤه ويقرأه، يملؤه ويملاؤه، هذا ملؤهم وملأهم، يشنؤك ويشنأك، ويكلؤك ويكلأك. ويرى أن الذي عليه متقدمو الكتاب وخط المصحف: يقرؤن، يهزؤن، يملؤن، هم مستهزؤن (وبعض كتب مستهزئون). واختلفوا في: مؤنه وشؤن جمع شأن، ورؤس؛ كتبه بعضهم بواوين وكتبه بعضهم بواو واحدة، وكلٌ حسن ^(٢). وفضل ابن قتيبة كتابة لثيم ورئيس ويشس وزئير بياثين! كما ذكر الخبار في كتابة يسأل ويسئل، وفضل كتابة مشؤم ومسؤل بواو واحدة ^(٣).

إذا جئنا إلى بعض الكتب المحققة وجدنا المحققين جميعاً قد غيروا الهمزات من حالتها الأولى إلى الحالة الحاضرة، التي فيها حذفقة، مثل: كتابة رمزين بدلاً من رمز واحد للصوت الواحد، وكتابة (١٠٠) مائة بالألف. مما يعني أن بعض المخطوطات القديمة المؤلف نفسه، وهو من هو في العلم، فبالله كيف يسوغ لنا أن نزعم أنهم لا يعرفون قواعد كتابة الهمزة. واليك أمثلة:

(١) ابن قتيبة: أدب الكاتب، تع محمد محي الدين عبد الحميد: القاهرة: ط السعادة ١٩٦٣م، ص ٢١٠.

(٢) أدب الكاتب ٢١١.

(٣) أدب الكاتب ٢١٢ وقابل بـ ابن درستويه: كتاب الكتاب، تع إبراهيم السامرائي وعبد الحزن الشنقي. الكويت: دار الكتب الثقافية ١٩٧٧م، ص ٣٤ - ٣٥.

في كتاب الانتصار لابن ولّاد (ت ٣٣٧هـ)^(١): لم يذكر المحقق شيئاً عن التنفير الذي أحدثه، غير أن صورتني المخطوطتين تبينان أن همزة البداية لا تكتب مثل: اقوال، احمد، ان، الى، الادغام، الاخفاء. وفي الوسط لا تكتب أحياناً وتثبت أحياناً مثل: راي ومثثلة. وهمزة الختام تثبت وأحياناً لا مثل: اليا .

في كتاب الإغفال للفارسي^(٢) (ت ٣٧٧هـ): لم يذكر محققه شيئاً عن التنفير الذي سيحدثه غير أن صورة المخطوطة الأم - يعود زمنها إلى القرن السادس الهجري - تبين أن همزة البداية لا تكتب، وهمزة الوسط تسهل مثل مسايل.

كتاب الدر الفريد وبيت القصيد لابن أيّدمر (ت بعد ٧٠٠هـ) بخط المؤلف نفسه في خمسة مجلدات^(٣). همزة البداية تكتب غالباً. والهمزة الممدودة في بداية الكلمة لا تكتب (آ) بل تكتب (أ) مثل: أخ الرجال، أرأؤكم، أساد، أليت. أما الوسطى فتسهل وتكتب ياءً أو واوًا مثل: خلايق، اومن، قابلوها، وكثيراً ما تكتب خارج الحامل مثل: عانيشة، دواسير، النوايب، المدايح. وأحياناً تكتب وسط الكلمة بغير حامل مثل: ردية.

نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر لليوسفي (ت ٧٥٩هـ): يقول محققه^(٤) متحدثاً عن المخطوط: عدم وجود قاعدة متبعة في كتابة الهمزة؛ فهي تسقط في: إمرا، بكا، ما (...) وتثبت الألف في هاؤلاء... إلخ.

أعيان العصر وأعيان النصر للمصفي (ت ٧٦٤هـ): لم يذكر المحققون^(٥) شيئاً عن التنفير، لكن صورة النسخة الأولى المكتوبة في ٩٧٣هـ تبين أن همزة البداية لا

(١) الانتصار لسبويه على المبرد. نج زهير عبد الحسن سلطان، بيروت: الرسالة ١٩٩٦م.

(٢) نج عبد الله بن عمر الحاج إبراهيم، دبي: مركز جمعة الماجد ٢٠٠٣م.

(٣) صورة معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت، إشراف فؤاد مزيّن ١٩٨٨م، مج ١ ص ٥، ٧٣، ١٨٠، ١٩٦، ١٩٧ - ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ومج ٥ ص ٢٩، ٣٣، ٦٤.

(٤) نج أحمد حطيط، بيروت: عالم الكتب ١٩٨٦م ص ١٠٣.

(٥) حنيفة علي أبو زيد ومحمود سالم محمد وبيل أبو عمشة ومحمد موعدة، دبي: مركز جمعة الماجد

نكتب، وبعض المتوسطة تسهل مثل: الفرياض. كما تبين صورة النسخة المكتوبة في ٨٣٣هـ أن الهمزة الأولى تكتب، وبعض المتوسطة تسهل في مثل: الصنائع. وفي بعض الأخيرة أيضاً مثل: درياً.

تمثال الأمثال للشيبني (ت ٨٣٧هـ): يذكر المحقق^(١) أن النسخة كتبت بعد وفاة المؤلف بثلاث سنين، ويذكر المحقق أن غير أمثال: (فوائد وعائشة وزائدة ووايل) إلى فوائد وعائشة وزائدة ووايل، وأنه غير مرااة إلى مرآة^(٢).

رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): لم يذكر محققه^(٣) التفسيرات التي أحدثها غير أن صورة النسخة الأولى بخط السخاوي (ت ٩٠٢هـ) تبين أن الكاتب لا يثبت الهمزتين الأولى والأخيرة، وأنه يسهل الوسطى مثل: قضايه ومسيلته.

نسمة الصخر في ذكر من تشيخ وشعر ليوسف بن يحيى الحسني^(٤) (ت ١١٢١هـ): تبين صورتنا النسختين - بخط المؤلف - أنه لا يكتب همزة البداية مطلقاً وأكثر الهمزات النهائية، وقد يسهل الوسطى.

نزهة الفكر للحضراوي (ت ١٩٠٩م): كان المحقق يغير كتابة الهمزات ويعد كتابة الأعداد فصيحة، خلافاً للنسخة التي بين يديه، وقد أشار إلى ذلك أحياناً^(٥).

أورد محمد خير رمضان يوسف في كتابه (معجم المؤلفين المعاصرين)^(٦) نماذج من خطوط المؤلفين نئين منها أن: محمد جمال القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)

(١) تع أسعد ذبيان، بيروت: دار المسيرة ١٩٨٢م ج١ / ٨٠.

(٢) نفسه ج١ / ٨٧ - ٨٨.

(٣) تع علي محمد عمر، القاهرة: الخانجي ١٩٩٨م.

(٤) تع كامل سلمان الجبوري، بيروت: المؤرخ العربي ١٩٩٩م.

(٥) نزهة الفكر فيما مضى من الحوادث والعبر في تراجم رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر. تع محمد المصري، دمشق: وزارة الثقافة ١٩٩٦م، ق ٢ ص ٣٩، ٥٧، ٢٣٥ مثلاً.

(٦) معجم المؤلفين المعاصرين في آثارهم المخطوطة والمطبوعة وما طبع منها أو حُقق بعد وفاتهم (وفايات ١٣١٥ - ١٤٢٤هـ - ١٨٩٧ - ٢٠٠٣م)، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية ٢٠٠٤م ص ٨٤٤، ٨٤٦.

٨٤٩، ٨٥١، ٨٥٣، ٨٥٥، ٨٥٨ - ٨٦٠

لا يكتب همزة البداية، وأن أحمد بركات (ت ١٣٤٨هـ) لا يكتب همزة البداية أحياناً كثيرة، وأنه يسهل بعض المتوسطة مثل: الخلاق، وأن جميل العظم (ت ١٣٥٢هـ) لا يكتب همزات البداية وكذلك فعل محمد سعيد القاسمي (ت ١٣١٧هـ)، والمني (ت ١٣١٦هـ)، ومصطفى الحكيم (ت ١٣٤١هـ)، وأمين محمد سعيد (ت ١٣٨٧هـ)، ويوسف التبهاني (ت ١٣٥٩هـ).

وبعد: ماذا يضير الفصحى إن قدمت قواعد الهمزة في صفحتين؟! أو تخففنا من كتابة همزة البداية؟ وإن كتبنا مثل: مسئول وشئون ورءوس ومئة هكذا؟! خصوصاً أن بعض ما قلناه قد قال به القدماء الذي نعتد بآرائهم وقالت به بعض الجامع اللغوية. لكنه الرهاب أعاذنا الله منه! ^{الذين}

ثالثاً: رهاب دراسة اللهجات الحديثة؛

دراسة اللهجات العربية الحديثة دراسة علمية تعني دراسة الواقع اللغوي الحي، الذي لا يجوز تجاهله أو إغفاله سواء كانت هذه الدراسة اللهجية جغرافية تهتم ببقعة جغرافية معينة، أو اجتماعية تهتم بطائفة من طوائف المجتمع. والمكتبة العربية فقيرة أشد الفقر في هذا النوع من الدراسات. مهما يكن منهجها، ومهما يكن القطاع المدروس فيها: الصوت، الصرف، بناء الجملة، الدلالة، علاقتها بالثقافة، علاقتها بالدين... إلخ.

والدراسات التي تمت في أحضان بعض الجامعات العربية - على قلتها - ظلت حبيسة أرفف المكتبات والمخازن في الكليات والأقسام التي أجازتها، فزادت القلة قلة. وللعزوف عن دراستها سبب علمي لا يذكره الباحثون عادة، هو أن دراسة اللهجات الحديثة تتطلب صبراً جميلاً في الملاحظة والاستقصاء ثم الاستنتاج بعد ضم الشبيه إلى الشبيه، وفوق ذلك تمييز المختلف في نطاق المتشابهين. علاوة على الدراسة النظرية التي لا بد منها سواء في مجال الدرس اللهجي أو في مجال قطاعات الدرس اللساني عامة، في حين أنه يسهل على

الباحث في غير هذه الدراسات أن يمسك بالمراجع والمصادر - وكلها مكتوبة -
فيصل إلى مبتغاه من أقرب طريق .

ثم بعد ذلك هناك السمعة السيئة التي علقت بدراسة اللهجات الحديثة، من
حيث إن الاستعمار وأذناؤه من المستشرقين والعملاء المحليين إنما يدرسونها كي
يحاربوا بها العربية الفصحى لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة^(١) . بأن
يحلوا هذه اللهجات محل اللغة الشريفة، مما سبب رهاب دراسة اللهجات. إذ
يتقدم الباحث طيب النية لدرس لهجي ما على استحياء وفي ذهنه كل
المحظورات سلفاً، فيحاول أن يدفع عن نفسه تهمة محاربة الفصحى . وإليك
أمثلة من الدراسات اللهجية القليلة، وفي مقدمة كل منها ما بين صفحتين إلى
نصف صفحة في نفي هذه التهمة والإبانة عن حسن النية:

- الخواص التركيبية للهجة أم درمان العربية. إعداد: كمال إبراهيم بدري
١٩٧٤م.

- الخواص التركيبية للهجة الشارقة، إعداد عبد الله علي مصطفى ١٩٨٥م .

- الخواص التركيبية للهجة طرابلس الغرب، إعداد عبد الله عبد الحميد سويد
١٩٧٧م .

- دراسة صوتية صرفية للهجة مدينة نابلس الفلسطينية. إعداد محمد جواد
النوري ١٩٧٩م .

- دراسة صوتية صرفية في لهجة قبيلة الشايقية، إعداد بكرى محمد الحاج
١٩٧٩م .

- دراسة صوتية للهجة مدينة بنغازي الليبية، إعداد أحمد طاهر حافظ ١٩٨٧م .

(١) انظر في ذلك: بنت الشاطئ: لغتنا وأحياءها، القاهرة: دار المعارف ١٩٧١م. ونفوسة وكرية سعيد الدعرة إلى
العامية في مصر. ط٢، دار المعارف، إسكندرية ١٩٨٣ء. وأنور اخندي: انقطة العربية بين حمايتها
وخصومها، القاهرة: دار الاعتصام ١٩٧٣م .

- دراسة لغوية في لهجات البدو في مصر، إعداد عبد العزيز مطر ١٩٦٠م.

وهذه الرسائل السبع كلها مجازة في كلية دار العلوم جامعة القاهرة، وكلها غير منشور باستثناء الأخيرة التي قبض لها النشر مرتين بعنوانين مختلفين هما: (لهجات البدو في الساحل الشمالي) و(لهجات البدو في إقليم ساحل مربوط) والمحتوى واحد.

وكاتب البحث لا يبرئ نفسه من هذا الرهاب؛ ففي عمله (لهجة ذمار دراسة صوتية وصفية) قال: «ولا يظن أحد أننا بدعوتنا لدراسة اللهجات دراسة وصفية نعزف ضمن الجوقة الداعية إلى ترك الفصحى، أو ندعو إلى كتابة الفصحى باللاتينية، أو ندعو إلى الكتابة بالعاميات. فما هدفنا أولاً وأخيراً إلا خدمة الفصحى، والله سبحانه وتعالى أعلم بالسرائر»^(١).

وبغض النظر عن أن دراسة اللهجات الحديثة في حد ذاتها مطلب علمي، فإن دراستها دراسة جادة لا تهاون فيها مفيد في دراسة الفصحى؛ إذ قد تكشف عن جوانب لم يهتم علماءنا القدماء الأجلاء بدرسها، وتكشف عن مصادر كثيرة من القراءات القرآنية التي لم تنسب إلى قوم أو قبيل، وتوضح - أو تكمل - جوانب من الدرس اللغوي القديم، كما تفيد في تعليم الفصحى على أسس سليمة؛ إذ إن معرفة المدرس بعادات طلابه اللغوية التي اكتسبها تجعله قادراً على تلمس مواطن الضعف والقوة التي تحتاج إلى عناية منه في التدريس. وكل ذلك لا يمكن أن يؤدي ثماره المرجوة قبل الوصف الدقيق للهجات الحديثة على أسس علمية.



(١) ماجستير في كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٤م، ص ٢، مثل ذلك؛ عائشة الدرمكية: التطور الدلالي للألفاظ في لهجة أهل فريات، مجلة (نزوى) العدد ٤٦، أبريل ٢٠٠٦م، ص ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

ختام

هذه أهم جوانب رُهاب الفصحى حاولنا تجليتها، سائلين المولى عز وجل أن ييسرنا عنه، وأن يجعل أعمالنا خالية من التناق، خالصة لوجهه الكريم، آمين!



هذا الكتاب

سميت الكتاب ((لفه اللغة والثقافة العربية)) ؛ لأن بعضها خاص بالدرس اللغوي عند القدماء والمتأخرين من القدماء والمحدثين ، وبعضها الآخر متعلق بأوهام عند مؤرخي أدبنا القديم ، أو عند مترجمينا الذين يعيب بعضهم بعضاً في حين أنه يقع في أكثر مما رمى به غيره . وقدمت الأسطورة المتضمنة على غيرها ؛ لأن فيها شرحاً أظنه والياً عن الأسطورة ، ثم تلتها بقية الأبحاث . يضم الكتاب ثمانية أبحاث ، يجمع بينهما رباط واحد ، هو مساءلة بعض المسلمين السائدة في ثقافتنا العربية ، وهذه المسلمات نزرع عنها هذه الصفة ونحاكمها بميزان العقل ، وميزان العصر الذي أنتجت فيه . ولم يكن هذا بالأمر السهل ؛ لأن ثقافتنا المعاصرة طابعها الاجترار وعبادة الأسماء الكبيرة من السلف والخلف مع آرائهم ولو خالفت المعقول والمنقول .

د/ عباس علي السُّوسنة